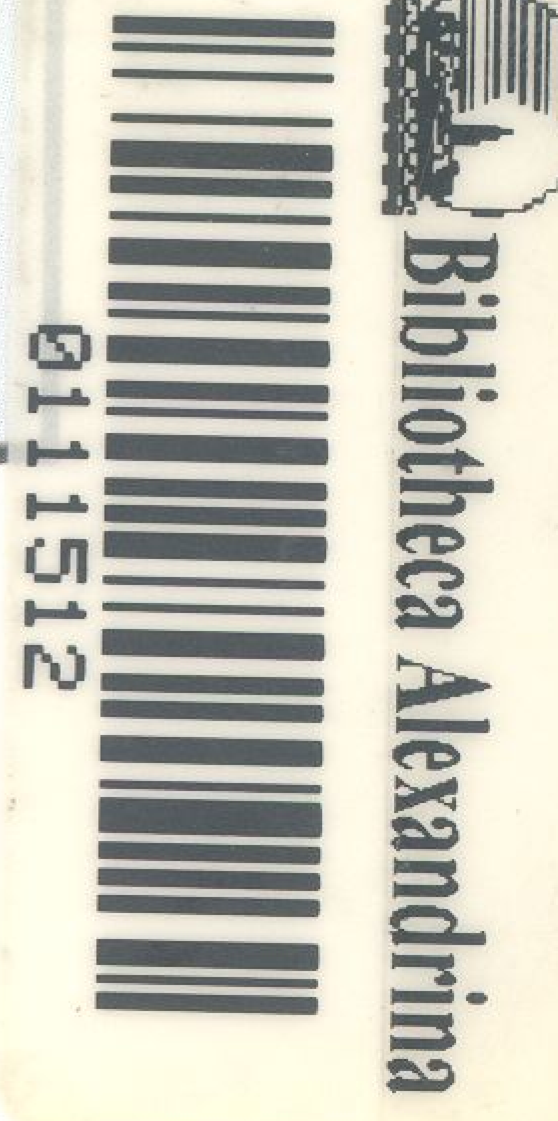
هدى أحمد جاد

ديسمبر الدافئ



قصص قصيرة





ديسمبر الدافئ

قصص قصيرة

هدى أحمد جاد

لوحة الغلاف للفنان : محمد الطلاوى

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٩/١٦٢٣

الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-291-122-1



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : صفاء الشريف

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

هدى أحمد جاد

ديسمبر الدافئ

قصص قصيرة

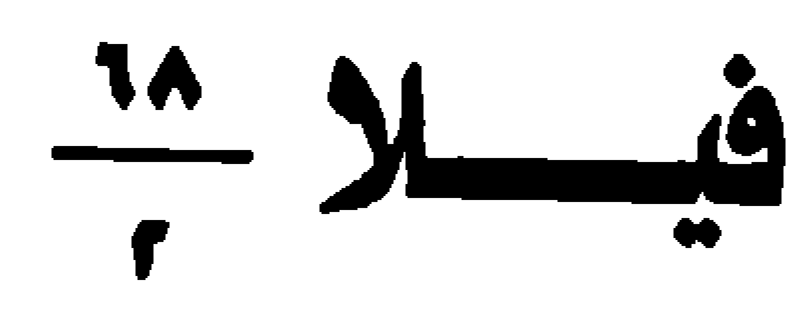


لافتـــــــات

١ - فيلا $\frac{١٨}{٢}$

٢ - مخزن

٣ - حى المناخ



للأمكنة قدرة غريبة على استدعائنا
تعرف كيف تسحبنا إليها ،
تملؤنابحنين يظـل يكبر ويكبر ويتراكـم ،
حتى يصيـر حبـاً لا يقـاوم .

يا ااه يا بورسعيد .. عشرون عاماً ومازال القلب مُفعماً برائحة اليود والملح ، وعيون الناس الذين فزعوا وهاموا في شوارعك يبحثون عن ملاجيء تقيهم الجحيم ، يلمون أشلاءهم وحقائبهم الصغيرة ، ويرحلون .. يرحلون وفي عيونهم ما لم تعرف الأرض من كلام .. عشرون عاماً ووداعك المأساوي يؤرقني في اغترابي ، على البعد سكنت عيني صورة الخوف يطارد الناس في الشوارع ، ودفء المصافحات الأخيرة في يدي ، وابتسامات الوداع الدامع لشجرة المانجو ، كاتمة أسراري الصغيرة ، قلبي الصغير المخنوق بعبراته ،البحر وانقباضاته التي تؤلم صدري ، وأنا أسمع صوت أبي يقول :

اقفلوا الباب .. اقفلوه كويس .

وتغيم عيون أمي بدمع لا يلبث يعلو في نهنهات ونشيج . وورائي أترك فيلا ٦٨/٢ ، أسفلت الشارع الناعم الذي كنا نرسم عليه بيوت الأولى

ونحجل بفساتيننا القصيرة وعيون الأولاد تتلصّص كعادتها كلما هب الهواء إلاّ عيونك يا حسن ، كنت تغار ، نعم كنت تغار وكنت ألحظ توتر ملامحك وأنت تراقب حانقاً وتخوض معاركك الصغيرة مع أحمد المخزنجي ، ومحسن شادوفه ومحمد السبناري من أجلي ، ومن أجلي يا حسن كنت تطارد أفراس النبي في حدائقنا ، تجمعها لي وتضعها في برطمانات زجاجية فأحتفظ بها في دولابي .

مازلت أذكر يا حسن وداعك الأخير ، ارتعاشة يدك في يدي ، وهمسك في أذني .. حتوحشيني .. كأني كنت أعرف أنني لن أراك ثانية .. هكذا رغت بعيني ناحية البحر ، وداريت دموعي ، ولم أشعر بيدك وهي تدس برطمان أفراس النبي في حقيبتي ، فقط وقفت أتأملك وأنت تصافح أبي كما يتصافح الرجال ، هكذا رأيتك في ضوء الفجر الأخير ، طويلاً كرجل، وعندما تستدير ، وتصعد درج المرساة تلتفت ناحيتنا ، لمرة أخيرة ، وتمضي ، فيما تبدأ المعدية في التحرك كنت أتحسس برطمان أفراس النبي .. كانت عيناي ترقباك ، وأنت تلوّح من بعيد ، والمعدية تمضي في اتجاه الشاطىء الآخر ، فتبدو من بعيد بلا ملامح ، كنقطة صغيرة، تتوه بين الواقفين على الشاطىء .

بورسعيد .. مدخل رقم ١

هكذا قرأت اللافتة .. وبدأت أهدىء حركة السيارة ، عليّ أن أدخلك برفق يا بورسعيد .. والآن سأدفع رسوم الدخول ، كأني ما كنت هنا يوماً ،

أتأمل الطريق وأبتسم لأمين الشرطة الذي يتفحصني ، ويطلب أوراق هويتي .. أقول أنا من بورسعيد ، يسمع لكنتي الخليجية ويندهش .. وينظر للافتة السيارة ، أمنحه ابتسامة أخرى فيسمح لي بالمرور ، أقول .. لكني لا أعرف الطريق لوسط المدينة .. يشير للأمام .. يمين في شمال ويمنحني ابتسامة أخيرة .

ياه يا بورسعيد .. عشرون عاماً من الهجر ، من هجر لآخر ، أنا باغترابي أم أنت .. عندما أجبرك الفزع أمرتنا بالرحيل ؟

كلانا قد تغير ، شوارعك مزدحمة كقلبي تماماً ، ومثلي تنجحين في إزاحة الوجع القديم ، إلى حفرة في أعماق الروح ، وطمر الجراحات القديمة ، أنت الآن أجمل ، أجمل كثيراً ، لكن روحك معذبة ، وعيونك مؤرقة ، تبحث عن شيء ما .. ربما تبحث عن يقين ، تقرأ لافتات المحال ، تتأمل الوجوه ، ترصد شرفات المنازل الخرسانية ، ترينها خاوية من أصص الورد وأشجار الياسمين القصيرة ، ترينها بلا رجال يشربون الشاي في ساعات النهار الأخيرة ، وبلا نساء ينشرن ملابسهن الملونة ، ويضعن مشابك الغسيل بين أسنانهن ، ولا ضحكات دافئة يحملها النسيم الليلي من شرفات مضيئة .

كان أبي يقول .. روح بورسعيد في هواها .. روحك الآن خليط من التفاح والعطور والصابون الملون .. روحي تهيم في فضائك ، باحثة عن الزمن الجميل وعن أفراس النبي .

في هذا الشارع مررت بجنازة أبي ، أبي الذي مات في الغربة .. وقالت أمي وصيته أن يدفن في بورسعيد .

بدا الشارع خالياً تماماً من البشر ، ربما كان هكذا دائماً ، طريق الجبانة ، طريق العشاق والموتى ، والحكايات الغريبة عن العفاريت التي تظهر في الليل وتعابث المارة وتضحك ، يقولون هى أرواح الفدائيين الذين ماتوا في ٥٦ ، يقولون .. هى أرواح طيبة ولا تؤذى العاشقين .

الحرب طالت مقابرنا يا أبي . أعرف أنها رغبتك .. فلم تكن تود الهجرة معنا .. كنت تقول : أنا زي السمك لو خرجت من بورسعيد أموت .. ها أنت قد عدت لمرة أخيرة .. أما أنا فعلي أن أودعها بعدك .. وربما لمرة أخيرة .. أيضاً .

مدرسة بورسعيد الثانوية بنات

ياه .. عشرون عاماً يا بورسعيد .. منذ وطأت قدماي أرضك للمرة الأخيرة، مدرسة بورسعيد الثانوية بنات ، اللافتة تقول ذلك حقاً لكن كل شيء قد تغيّر . هنا .. كان فصل ٣/ ١ ، ونوافذه الخشبية العريضة ذات الطراز الإيطالي ، وفي الخلف كانتين المدرسة ، مُجرّد كُشك صغير ، ودادة زينات البدينة لا تفارقه .. فقط تمد يدها السمينة من فتحة ضيقة ، تناول البنات اللب واللبان وسندوتشات الفول والطعمية ، وصف أشجار الكافور العتيقة تحاذي السور ، تحتها كنا نجلس ، نهمس فيما بيننا ، ونبوح بأسرارنا الصغيرة ، ونكتم ضحكاتنا كلما رأينا الأستاذ جلال بنظارته السميكة وجسده المهزول ، كان الأستاذ جلال عاشقاً لأبلة عايدة ، الجميع يعرفون ذلك ، هو وحده الذي لا يعرف أن عينيه تفضحانه بقوة من وراء الزجاج السميك لنظارته الطبيّة ، اللافتة كما هي ، كأنها كتبت للتو ،

مدرسة بورسعيد الثانوية بنات ، اللافتة فقط ، وعلى بُعد خطوات كانت تمشي بين البنات بملابسهن الرمادية ، تضغط بكتبها على نهدها الصغير ؛ وتُلملمْ خصلات من شعرها يطيرها الهواء ، ترنو بعينيها الناعستين ناحية الرصيف الآخر ، فتراه بينهم ، يبتسم لها فتداري ابتسامتها ، وتُغيّر طريقها في اتجاه شارع طرح البحر ، تُبطىء خطواتها وتضغط بقوة على صدرها ، تداري ارتباكها وخفقات قلبها ، وعندما يكون بجوارها يهمس .. وحشتيني .

حديقة المسلة

كان عم حسين القرش يفترش أوراقه ، يصرخ في البنات اللاتي يتحلقن حوله ، يقول : واحدة واحدة ، يأخذ الحلوان أولاً يدسه في جيب السيالة ، يقرّب الورقة من عينيه ويقرأ ، وعندما يبتسم تظهر أسنانه المثرمة .. يقول : مبروك . فتتعالى صيحات الفرح وحين لا يبتسم يقول بحزن : معلش يا بنتي ، تتعوّض ، ويرد الحلوان الذي أخذه ، في ذلك اليوم ، حين تعلن النتائج ، تمتلىء الحديقة بصيحات فرح ودموع ، ومرارة الإخفاق ، يومها كان ينتظرها بالقرب من الفسقية ، وعندما خرجت من بين البنات رآها من بعيد ، تجري إليه ، تضحك ولمعة دمع في عينيها .. نجحت ، وعندما أمسك يدها وهمس : مبروك .. تمنت لو يحضنها بقوة ، وفي المساء كانا في نفس المكان ، يتجولان بين أشجار الفيكس ويقطفان زهور المنثور ، وتحت شجرة التين المنغولي الضخمة جلسا ، وتقاسما قطع الشيكولاتة التي كان يعرف أنها تحبها .

قـال : حلاوة الـنجاح . وهمس فـي أذنها : علـشان أجـمل عـيـون في الدنيـا . تراجعت قليـلاً وأحست بقلبهـا يخفق بقوة ، لكنه أمـسك بيدها ، واحتضنها لم يأبه بالمارة ، ولم تسحب يدها .

منفذ رقم ٣

أخرج بسيارتي من المعـدية ، أتحرّك ببطء ، أتجاوز المنـفذ رقم ٣ ، بداية الرحيل كانت من هنا ، كان الميدان أقل اتساعـاً ، والبيوت الخشبية لم تزل ، بشرفـات عريضة ، هذه المبـاني الخرسانيـة أكثر سطوة ، واللافـتات في كل مكان ، تحدق بي ، وتنهش ذاكـرتي بعنف ، أحاول فـلا أذكر ، ربما لم تكن موجودة أبـداً ، فقط في اتجاه اليـسـار ، كان السـوق الكبيـر ، يزدحم بالنسوة والبنات ، والباعة ينادون ، ويشاكسـون فتيات المدارس كلما مررن ، وكانت هي تداري ابتسـامتهـا ، هكذا قالت أمهـا : لا تبتسمي لـهم ، لكنها أبداً لم تكن تنجح في إخفاء ابتسامتها٨كلما مرت أمام عم سرور ا|خضري ، ذلك العـجوز خفـيف دلظل ، يزعق حين يراها ، خـعلو صوته : يا جـاه النبي .. خلي أمك تبخرك من عيني . كانت الشمس تميل لل[عوب ، وتسقط ظلالاً خفيفـةتتماوج على صفحة الماء وتتلوّن بحُمرة تـرتعش ، والناس يتدافعون على المِرساة ،وطابور السيارات يتحرك بـبطء شديد ، عندما كنت صغـيرة كان البحر يبدو لي أكبر من هذا ، كان بحراً واسعـاً يخيفني ، وشيئاً فشيئاً ، كان عليَّ أن أعبـره يومياً إلى المدرسة هكذا تكونت بيني وبين البحـر علاقة حب ، كنت وعواطف نتجاوز شـارع طرح البحر ، نبلغ الشاطىء ، نمشي ، نلتقـط الودعات وصدفـات البحـر ، نلصقـها بأذاننا ، نسمـع ، الوشيش ،

ننصت بدهشـة ، ونحكـي عن جنّيـة البحـر التي اختـبـأت في واحـدة من الودعات وعندمـا نراه قادماً تغـمزني عواطف بـيدها وتبتـسم ، تهمس : أنا ماشـية . وتـسبقـني بخطوات ، يقتـرب ناحيـتي ، أهدىء خطواتي وأداري ابتسامتي وخجلي ، أضم حقـيبتي إلى صدري بقوة ، وحين يكون بجواري تنتظم خطواتنا برفق ونبدأ في حديث هامس .

كانت الشـمس تميل للغروب ، عندما غادرا مـعاً حديقة المسلـة ، قفزت على مـقعـد الدراجة ، تحتـضنه من الخلف ، وارتعاشـة خـفيـفة تهـزها من الداخل ، تميل علـى أذنه وتهـمس : اجـرِ بسـرعـة .. اتأخـرت .. عندئـذ تشـم رائحـة عطره .. فتـميل من جـديد .. بسرعـة شوية اتأخـرت ، كانت تشعر أنهـا تحتويه ، تمتلكه أخيراً ، بعد مناورات الغـزل التي دامت شهوراً ، عندمـا وصلا المعديـة قال : تتجـوزيني ؟ هزّت راسـها في صمـت وعادت تروغ بنظراتهـا ناحـية البـحر ، عنـدئذ خلع ملابسـه وألـقى بنفسـه في الماء وسـط دهشة النـاس الذين وقفوا يراقـبونه معـها وهو يسـبح إلى الشاطىء الآخر وجـسده العـاري يلتمع في المـاء ، تتسع ابتـسامتـها وتسـتنشق هواء البحـر بقـوة.

عند أول الشارع يمكنني رؤية صف الفيلاّت . بأبوابها الخشبية ، وأسوار القرميد الحمراء . أشجار الياسمين بلا رائـحة ، غصون جافة تتشابك متربـة وصامتـة ، أتتبّع لافتـات الصاج الأزرق ، تلك المثبـتة بجـوار الأبـواب لم تعـد لنا ، ولا تمنحنا فـرصة الاقـتـراب منها ، هكـذا قـرأت اللافـتـة ٦٨/٢ بخـط أبيض دقـيق ، بالكاد أراه تحت طبقـة التراب ، مـجرد لافتـة صغـيرة مثبـتة بجوار البـاب المطلي حـديثـاً ، وأنا في سيـارتي يمكنني رؤية شـجرة

المانجو ، تميل بجذعها الذي أصبح أكثر ضخامة ، وفروعها الشائخة المثقلة تغطي جانباً من شرفتي ، هكذا كانت دائماً ، تحتها كان مأوى الأرانب ، جحور صغيرة في الأرض ، أنفاق لا نعرف أين تنتهي ، نزلت من سيارتي اقتربت من السور ، الآن يمكنني أن أطوله ، وأنظر من فوقه أحدق في الداخل ، ثمة صغار يلعبون ، يتسلقون فروع المانجو ويطاردون مثلنا .. أفراس النبي .

مخـــزن

مجرد مذياع كبيـر .. مُعلّق على رف معدنـي في فـرن قديـم ، هذا كل ما تبـقـى فـى الذاكـرة ، حين مـررت علـى البـوتيك ، وتأملـت اللافـتـة الكبيـرة المضـاءة بالنيـون ، وفاترينـات العــرض ، والشاب الأنيـق ببشرتـه البيضـاء .

لا شيء يمكنه أن يثير تداعيات الماضي ، ذلك البـعيـد ، البـعيـد جداً ، فهؤلاء الـذين وقفوا يوماً وتزاحـموا للحصول على رغـيف عيش ، ينادونه بقلق .. يا عم علي .. عاوزين نروّح قبل الغارة .

«ياربي .. كانت الغارات معجونة بقوتهم اليومي»

هم الآن يمرون بنفس وجـوهم القديمة ، يحـدقون في فاتريـنات العرض ولا يمكنهم أن يـذكـروا من كل هذا سـوى مـذياع كـبـيـر مُعلّق على رف معدنـي ، فيما صوته الآن يرن في أذني ، واهناً مـشروخاً كصوت صاحبه ، يوم وقف يصـرخ في ظلام الشارع ، يشـير لأبي ناحـية الملاّحـات ويقول : شفتهم .. شفتهم بعيني .. نازلين بالبرشوتات ، ويجـري بساقـه العرجـاء ، التي تظهــر في ضـوء القـمر الـكابي ، سـوداء وضـامرة تحت الكالســون الأبيض القصيـر .

طبقـات السناج الأسود تغطي كل شيء ، وتزداد كثـافة حول الشـاروقة والضوء الشـحيح لمصبـاح وحيد يـجعل لطـاولات العجـين المرصوصـة على الحـائـط ظـلالاً داكنة ويسقط بوهــن على أجولـة الدقـيـق والـردة ،

وفي زاوية الفرن ، ذلك الذي لم نره مفتوحاً في يوم ما . فقط كلمة واحدة بخط مرتعش ، بلون أحمر داكن ، على خشب الباب المتشقق (مخزن) يقرأها كل من يدخل الفرن بوضوح ، رغم طبقات السناج التي تحاول طمسه .

مرات عديدة سمعت أبي يتكلم عن عم علي ، يقول أنه اشترى الفرن من الخواجة تاكي ، الذي ترك مصر قبل الثورة بسنتين ، وأن الخواجة ساب له الراديو وبندقية صيد اعتاد أن يحملها في عصاري الصيف ، وذهب بها ناحية (العنابر) الآن .. أذكر ، كانت الطائرات ترمي بقناديل تنفجر في الظلام قبل القصف ، وتظل معلقة هناك بعض الوقت ، تضيء السماء وأسطح البيوت وقمم الأشجار ، وعندما نظرت من فرجة الشباك رأيتهم كأشباح ، يتسللون في الظلام بملابسهم الداكنة ، يلتصقون بالحوائط، يدخلون الفرن ويخرجون ، حاملين على أكتافهم صناديق ، يرصونها بعجلة في سيارة الإسعاف ، التي تطفيء أنوارها وتقف في صمت بجوار فيلا طنط محاسن ، محتمية بأغصان شجرة التين المنغولي الضخمة ، التي تغطي نصف الشارع. ناديت أبي وأمي ، بدا الخوف في عيون أمي واضحاً، فيما ابتسم أبي وقال : معقولة !! عم علي بيشتغل مع الفدائيين !!

وفي سهرات الصيف يَجُر دكته الخشبية ويجالس أبي أمام باب الفيلا ، يحضر المنقد والماشة ويقسم أن يرص شيشة أبي بنفسه ، أما هو فكان ينهمك في مص غاب الجوزة بنهم ، ويداعب أبي فيوجه الغاب ناحية فمه ، يدفعها أبي بيده ويضحك : كل واحد ومزاجه يا عم علي . يضحك عم علي ويقول : مزاج بشوات طبعاً .

وشيئاً فشيئاً يتجه الحديث للسياسة ، ويكون أبو حسن وسيد خميس والعربي قد انضموا إليهما ، تحضر أمي الشاي ، أحمله إليهم ، أنزل درجات السلم بحرص وأخوض في النجيل القصير ، فتتقافز الأرانب حول ساقي ، أركلها فتجري إلى جحورها ، وترتج الصينية في يدي ، وتصطك الأكواب فيقوم أبي ويأخذ مني الصينية ، ويشير بعينيه أن أعود ، حيث البنات يتحلقن حول حسن ، الذي يحكي حكايات لا تنتهي عن بحارة تاهت مراكبهم في بحر الظلمات ، فيما يتناهى إلينا صوت المقرىء من بعيد ، وحين تدق الساعة ويعلن المذيع عن نشرة الأخبار ، ينتقلون بمقاعدهم عند باب الفرن ، ينصتون بدقة ويعلقون بكلمات سريعة ، وحين تنتهي نشرة الأخبار ، يعودون للكلام بصوت عال ، وترتفع أصوات بتعليقات تبدو كشجار وأسمع اسم جمال عبد الناصر يتردد بينهم .

«جزء مني معك يا عم علي ، هل تذكر ؟»

قلت له فنظر إليَّ بدهشة واسعة واستغراب ، وربما حاول إيقاظ ذاكرته فحدّق فيَّ بعينين أوجعهما الزمن ونار الفرن ، فقلت : أنا هند بنت أحمد المفتش ، فاكر ؟ في الفيلا اللي قصادك .. دي .. نظر ناحية الفيلا التي بدت مهجورة تماماً ، هز رأسه وراح في صمت طويل ، جلست بجواره علي الدكة ، وتأملت المكان ، بدا لي كل شيء كما هو ، غير أن ثمة برودة تسري ، وصمت يعطي إحساساً بأن الفرن لم يعمل منذ زمن طويل ، ربتُ على كتفه وقلت إن أبي ظل يذكره كثيراً أيام التهجير ، وإني انتهيت من دفنه لتوي ، وفكرت أن أخبرك لتقرأ له الفاتحة ، ولما لم يرد عدت أتأمل المكان من جديد .

أذوب في صمته وأحزاني التي لم تجف ، منذ أن مات أبي في الفجر وأثناء رحلة مرهقة في سيارة الدفن من المنصورة إلى بورسعيد ، كان باب المخزن مغلقاً كعادته ، وماجور العجين بجواره بدا أكثر رسوخاً بلونه الكالح وآثار العجين الجاف على جانبيه ..

- جزء مني معك يا عم علي ، هل تذكر ؟!

في ذلك اليوم لم ينقطع المطر منذ الفجر ، والشوارع بدت خالية من الناس ، قليلون يدخلون الفرن ويخرجون بالأرغفة الساخنة يغطونها بملابسهم أو بأوراق جرائد خشية البلل ، ويتحركون تحت البلكونات والأشجار ، وكنت أعبر الطريق بسرعة عندما اندفعت داخل الفرن ، وتعلقت ساقي بعتبة رخامية مثبتة أمام الباب ، فسقطت على وجهي ، وعندما وضعت يدي على فمي كانت سنتي اللبنية مخلخلة ، ودماء تسيل على رقبتي فصرخت ، فضحك عم علي ، وربت على كتفي وقال : وريني كده ، وبسرعة جذب السنة المخلخلة فازداد صراخي ، دخل المخزن ، وعاد بقطعة قطن ، مسح الدم وقال : دلوقت بقينا عواجيز زي بعض . بصي . ابتسم فظهرت سنته الزرقاء وبجوارها فراغ لأخرى فقدها ، وحكى لي عن الميجور الانجليزي الذي لكمه أيام كان يعمل في الجيش ، ولا أنسى تعبيرات الألم على وجهه وهو يحكي ، وعندما لاحظ أني بدأت أبكي من جديد قال : ولا يهمك ، أنا دفنتها في المخزن علشان يطلع لك غيرها بسرعة ، ولما تكبري تعالي خديها . قلت حاضر ، ومسحت دموعي فقال : بس أوعي تنسي . وانهمك في انتقاء الأرغفة ، ولفها في جوال نظيف ،

وفيـما كنت أتجاوز العـتبة بـحرص هذه المرة لأخرج .. قـال - من جديد - أوعي تنســي لما تكبـري .

لن أنسى يا عم علي ، لكن الهجرة هذه المرة طالت ، وحرب الاستنزاف أجبـرت البـاقين علي الرحـيل ، إلاّ أنـت يا عـم علي .. قـال ومين يخـبـز للعساكـر ؟ لكن فُرنك لـم يعد يشتغل يا عم علـي ، الحرب هذه المرة ليست حـربك . لماذا لا تأتي مـعي إلى المنصـورة .. فـاهمني ؟ .. طب مش عـاوز حـاجة ؟ أصلي راجـعـة دلوقت ، خـلاص دفناه زي ما طـلب ،وأنا كمـان اتعودت الهجرة ..

لـم تكن ثمـة استـجابة ، فـقط صمـت ، ونظرة ذاهلة للخواء ، وعـيناىّ فيهـما دموع محبـوسة ، لا أعرف إن كانت حزناً عـلى أبي .. أم أنها كانت هكذا دائماً .

فـتحت الـراديو ، بدأ يفح ويخـروش بصوت كـالأنين ، أدرت المؤشـر بحثاً عن مـحطة ما ، كل الأصوات مخنـوقة كما لو كانت تأتـي من بعيد ، بالكاد التقط المؤشر أغانٍ لا أعرف بأي لغة ، كانت تروغ وتسكت .

ستـعود من جـديد ، هكذا تركتـه ، وعندما اقتـربت من العتـبة سـمعت صـوتاً واهناً وحـشرجـة ، وخُيّل إلىّ أن عم علي يتكـلم ، وأنه يقـول لي : خلي بالك من العـتبة ، هكذا تجـاوزت العتـبة بحرص ، وألقـيت نظرة إلى الوراء ، حيث كان عم علي سادراً في صمته وماجور العجين راسخاً بجوار باب المخـزن ، ومذيـاع قـديـم فـوق رف معـدنـي ، أدركـت الآن فقـط .. أنها أغانٍ عبرية .

- مع السلامة يا عم علي .

همست بها لنفسي ، وقلت : ربما لا أراك ثانية ، سأرحل بلاد الله لخلق الله ، ولا أعرف إن كنت ساعود يوماً لأقف هكذا .. أمام بوتيك بلافتة مضاءة ، أحدّق في عمق المحل ، وأشحذ ذاكرتي بقوة ، وأحاول تحديد مكان ماجور العجين ، والباب الخشبي المتشقق ، والحروف المرتعشة بالأحمر الداكن : (مخزن) .

ولا أنتبه للشاب الذي وقف أمامي مبتسماً كاشفاً عن أسنان لامعة ومصفوفة بدقة ، ابتسمت لنفسي فابتسم أكثر ، وفكرت لو أسأله : هل عثرت على سنتي في المخزن ؟

حي المنـــاخ

كثيراً كانت أمي تصحبني إلى بيت الخالة فاطمة ، يحدث هذا في طريق عودتنا من شارع كسري حيث سوق السمك الكبير ، نجتاز الشوارع الضيقة إلى حي المناخ ، ونحن على مشارف الحارة نـراها أمام البيت تجلس أم بكير بجـسدها الـضخم ، تركن ظهـرها إلى الحـائط الحـجري ، وتمدد سـاقـيهـا المنتـفـخـتين في الـشـمس ، وعـصـا طويلة في يدها دائمـاً ، تـهش القطط والكلاب التي تحوم حول كـتاكيتها ، وترنو إلى السمـاء دائماً بنظرات قلقة من غـارات الحِدآن التي تسكن أسطح البـيوت القـديمة ، تلك التي تتـربص بالسـاعـات أملاً في لحظة واحدة تـغفو فـيها عـيون أم بكير بخـدر الشمس الدافئـة فتنقض ، ولا تفيق أم بـكير إلاّ على صآصـآت الكتاكيت الفـزعة ، عندئذ تدرك أن كتـاكيتها نقـصت واحداً تصرخ ، وتطوّح بالعـصا في اتجاه الـسـماء بيـأس . الخالة فـاطمة تحكـي لأمي ، تقول : أم بكيـر لا يعيش لهـا كتاكيـت ، تضحك فيرتج صدرها السمين وهي تصب قـهوة أمي ، دائماً أم بكير فـي جلساتها هذه ، لا الحِدآن تتـوقف عن القنص ولا أم بكيـر تتوقف عن تربية الكتاكيت .

مرات عـديدة تُعد أمي لفـافة السمك بنفـسها ، نصـف أقة تضعـها في الـسلة على جانب ، وعندما تقترب من أم بكير تخرجها ، تقول .. هديتك يا أم بكير ، تشير بعصاها ناحيـة باب البيت بلا حتي كلمة شكر فتدخل أمي ،

وأتركها تنزل الدرجات الثلاث ، حيث تضع اللفافة في حجرة أم بكير ، وتلحق بي وأنا أدق على باب الخالة فاطمة بالدور الثاني .

كم مرة فعلت أمي هذا قبل أن تدرك أن القطط تتسلل وراءها ، وتنفرد بنصف أقة السمك .

واتتني الشجاعة لمرة واحدة ، ونزلت مع أمي الدرجات الثلاثة ، حدّقت معها في عتمة البدروم ، وأنا أستقبل نسمات الهواء البارد ورائحة العطن ، وشيئاً فشيئاً يمكنني رؤية اللحاف المتهرىء ، ووابور الجاز ، والأواني النحاسية المركونة بجوار الحائط الرطب ، والولد المُمدّد على ظهره ، يغط في النوم بشخير خفيف ، والجلباب المقلّم ينحسر عن فخذين ضامرين ، وذباب يحيط بشفتيه وعينيه .

لم أصدق أن هذا الولد الطويل بصدره المفتوح وعينيه الوقحتين ، التي يصوبهما في عيني بقوة ، هو نفسه ذلك الولد الضامر الذي رأيته مُمدّداً في بدروم الخالة فاطمة .

كل هذه الحياة يوقظها فجأة في شوارع الظهيرة الملتهبة ! ، فتُفتح النوافذ المغلقة ويُسمع وطء خطوات النازلين على السلالم الخشبية بأعمدة الأكل الساخن ، كل هذا بمجرد أن يضع إصبعيه بين شفتيه ويطلق صفارته التي يعرفها الجميع . ها هو عمود الأكل الخاص مُعد على المنضدة القريبة من الباب ، أحمله بسرعه وأنزل الحديقة ببطء ، وعند الباب أنتظره حين يفرغ من استلام مخصصات الفيلاّت القريبة ، يرصها بدقة وراء بعضها ، يشبكها جميعاً ويحملها على كتفه بعصا طويلة .

في كل مرة يرميني بتلك النظرة الوقحة ، وفي كل مرة أرتبك قليلاً وهو يأخذ عمود الأكل من يدي بينما لا أداري إعجابي بقدرته على قيادة الدراجة بكل هذه السرعة ، وتوازنه الدقيق بكل هذا الحمل من أواني الطعام الساخن التي يأخذها إلى موظفي الهيئة ، وبمجرد أن يعبر البوابة الرئيسية ، ويعلن عن قدومه بصفارته المعروفة ، يخرج الموظفون لأخذ مخصصاتهم من الطعام البيتي ، وربما يحصل الواحد منهم على رسالة شفوية من أهل البيت .

عندما ضربت الطائرات بيت الخالة فاطمة هاجرت مع من هاجروا ، البيوت المجاورة أغلبها احترق ببودرة البارود التي ألقتها الطائرات ، حى المناخ بدا كومة من الأنقاض والحرائق ، حتى الحدآن فزعت وتخلّت عن أسطح البيوت القديمة ، وكتاكيت أم بكير تاهت بين الأنقاض . والناس رأوا أم بكير تجوس بين الخرائب ، والدموع في عينيها تزيح الأكداس بيدها وتفتح فرجة تكفيها ، تتسلل إلى حجرتها تحت بير السلم ، وفي الليل ، تُسمع صيحاتها الجريحة ، فيما تفكر في الولد الذي خرج صباح القصف ولم يعد .

أيام ثلاثة مضت قبل أن يأتي الرجال ، أيام ثلاثة تداوي جراح كتاكيتها ، تستيقظ من غفواتها القصيرة على صوت بكير ، تفتح عينيها ، تدرك أنه مجرد هاتف ، تعاود غفواتها بجفون مثقلة ، وفي تلك المرة سمعت من يناديها : يا أم بكير .. يا أم بكير .

اطلّت برأسها من الفرجة الضيقة ، كان النهار في أوله ، وأشعة شمس الشتاء تتكسر بوهن فوق الأحجار ، هكذا رأت ظلالهم ، كانوا ثلاثة

من الرجال ، حدقت فيهم وهي تظلل عينيها بيدها . عندئذ تقدم أحدهم ، أخذ بيدها ، وصحبها برفق إلى حيث الحنطور الواقف على بعد خطوات من الركام ، وحيث رابعهم يجلس بهدوء ، يمد إليها يده ويجذبها لأعلى .

صمت وأرق ، وهواجس غامضة ، تحيط بالموكب الذي يمر بسرعة في الشوارع شبه الخالية ، وشعور مبهم لديها ، الأمر يتعلق ببكير ، لا أحد يتكلم ولا لسانها يطاوعها أن تقول ذلك ، بمجرد دخول الجبانة شمت تلك الرائحة ، أشجار الجميز العتيقة والتراب المبلول . قالت في نفسها : ريحة موت . مدّت رأسها وحدّقت بعينيها ، هكذا بدت صفوف المقابر على امتداد بصرها ، بشواهد منتصبة ، ونباتات صبّار قصيرة تُحيط بها في صمت وقسوة كما لو كانت نباتات حجرية ، بصعوبة استطاعت أن تُميّز مقبرة تضم إلى ما بعدها لأنها كلمة واحدة : أبو بكير ، وتذكرت آخر زيارة له ، في ذلك اليوم لم تبك كعادتها ، فقط جلست أمام القبر ، كانت تحادثه ، تقص حكايات بنبرة يختلط فيها الفخر والعتاب والشجن ، وتنهي كلماتها عادة بجملة واحدة ، تُكرّرها كثيراً .. الواد طالع لك في كل حاجة .

يتوقف الحنطور أمام المدفن الكبير ، البوابة الخشبية العتيقة ذات النقوش الإسلامية البارزة ، محاطة بوحدات هندسية تتشابك وتتداخل بلا نهاية كأنها متاهات بين الحياة والموت ، وأعلى المبنى تبدو عرائس تحيط بسطح المدفن ، تحمل كل منها اسماً من أسماء الله الحسنى . وتبدو القبة من ورائها مكسوة باستواء لا يخلخله سوى النوافذ الزجاجية الملونة ، كل هذا الجمال لا يُبدّد وحشة الموت هنا . بدأ الرجال يخرجون من المدافن المجاورة ويتجهون ناحية المدفن الكبير ، والذين كانوا يجلسون بجوار البوابة الخشبية

العتيـقة وقفوا الواحد تلو الآخر ، يـدون كأشباح في معاطفـهم وملابسهم الثقيلة الداكنة، وذقونهم النابتة، ومدافع «الكلاشنكوف والكارل جوستاف» فـوق أكـتافـهم ، تقـدم أحـدهم إلى أم بكيـر ، أمسـك يدها وهي تنزل من الخنطور الذي بدأ يميل تحت ثقلها ، فيما وقف الفرس ساكناً ومطرقاً بعينين ناعسـتين ، كانوا يحيطون بهـا وهي تتحـرك ببطء ، ويقودونها ناحـية بوابة المدفن الكبيـر ، ثلاثة من الجالسين يفتحـون البوابة أمامـها ، وكانوا جمـيعاً يلقون علـى أذنها عبـارات المواساة والعـزاء ، لم تكن تسـمـع منها شـيئاً ، ولا كـان يمكـنهـا التـعـرف على الملامـح بدقـة ، فـقـط تشـعـر طـوال الوقــت أنها بـين أناس يعرفـونها وتعرفهم ، وكانت عيناها مصـوبتان عبر البوابـة ، حيث استطـاعت أن ترى الجثمـان للمرة الأولى ، عـندئذ انتابتـها رعدة قوية وامتـدت يد الرجال لتسندها قبل أن تجثو على ركبتـيها وتجهـش ببكاء حـار .

بدا الجثمان ضامراً وطويلاً في ثوبه الأبيض المبقع بدماء داكنة عند البطن والصدر ، وثمة ضوء ملون يسقط من إحـدى النوافذ يمس جانباً منه ، يزيده جلالاً ورهبة ، وينكسر بظلال طويلة على المقبرة الجانبية .

في الليلة الأولى لها بالجبانة سمعت حكايات كثيرة ، ربما أكثر من رواية عن بكير وما حدث ليلة الأمس ، عندما سـقط المظليون فوق الجبانات ، قال بدر الصياد : إنه كان يجلس فوق سطح المـدفن العالي لمراقبة المنطقة ، وكل منهما يتدثر ببطانية ، مال بدر الصياد برأسه قليلاً على محيط القبة السفلى ، فيما ظل بكير يدور داخل مربع السـطح ، متشاغلاً بعد عرائس الجص على جانبيه ، حـين سمع صوت ارتطام خفيف يأتي من بعيـد ، حدّق في الظلمة

قليلاً ، ورأى واحداً منها ، عندئذ صرخ : الشياطين الحمر !! تنبه بدر الصيّاد ، وراح يُردّد معه : الشياطين الحمر !! وتنبه الجميع وبسرعة بدءَوا يتعاملون مع المظليين ، كان الظلام كثيفاً ، وعلى ضوء كشافات الجيب الصغيرة يصوبون مدافعهم الرشاشة ، وبنادقهم نصف الآلية ، هكذا بدا لهم الأمر في أوله سهلاً ومرحاً كصيد العصافير في الليل ، يصوبون كشافات الجيب ويطلقون الرصاص . ربما مضى بعض الوقت قبل أن يدركوا الخدعة ، لم تكن المظلات تحمل سوى دمي خشبية وقطنية ، وفي الأفق الجنوبي من الجبانات ، كانت المظلات تتساقط بكثافة لا نظير لها ، وعندما توجهوا إليها فوجئوا بطلقات الانجليز من كل جانب ، لم يعد الأمر سهلاً كصيد العصافير ، ثمة مواجهة حقيقية وحرباً ، رجل لرجل . قال مصطفى خضير : إن الشهداء كانوا ثلاثة وعشرين ، والجرحى نقلناهم للمستشفى الأميري ، وقال إنه كان يختبيء فى أحد المدافن ، وبعد أن هدأت الأمور قليلاً ، وفي ضوء الفجر رأى الانجليز وهم يلمون قتلاهم وجرحاهم وينسحبون ، وشاف بعينيه بكير وهو يسحب جثتين إلى داخل المدفن ، وعندما خرج ليسحب الثالث نالته دفعتين من رشاش .

- دمعت عيناه وقال إن صرخته مازالت ترن في أذني .

عرض مصطفى خضير على أم بكير أن تبقى معهم بالجبانة ، قال : احنا هنا محتاجين أمهاتنا . محتاجينكم يا خالة .

راقت لها فكرة أن تبقى هنا ، بين الرجال والموت ، ونسوة قليلات تركن دورهن وتبادلن العمل في خدمة الرجال والطهو لهم ، وربما يقمن

بـبـعـض مهـام صغـيـرة وخـاصة مـثـل مـداواة الجـراح الخـفـيـفـة ، أو نقل رسالــة شفوية إلى قادة التشكيل . هكذا استقرت أم بكير على أن تبقـى في الجبانات قالت لنفـسها ماذا لي هناك ؟ ولدي مات ، بيتي تهدّم ، وكـتاكيتي بين الأنقاض .

وفي الصباح قـدم مصطفى خضير لهـا صرّة كبيرة من القـماش ، عندما فتحتها وجدتها ملابس عسكرية وأشياء أخرى صغيرة .. وعندما نظرت إليه بدهشة قال : بتوع العساكر اللي سحبهم بكير للمدفن .

بيت الخـالة فاطمـة ظل شـاهداً ، كلما مـررت به أتذكـر الولد الأسمـر وعينيه الجريئتين ، وصفارته التي يعـرفها الجميع ، والمرأة السمينة التي عادت بعد ذلك لتربية الكتاكيت، وبَنتْ لنفسها عشة صغيرة من البوص أمام البيت المُتهدّم ، وأنقاضه التي تناثرت هنا وهناك ، وخالتي فاطمة التي هاجرت إلى دميـاط ولم تعد ، وأتذكر تلـك القصة التي حكاها لنا أبي عـن أم بكير التي اخترقت الحشد الهائل بشارع طرح البحر يوم زيارة جمـال عبد الناصـر بعد الحرب ، وألقت بنفسها أمام عربة الريس ، ورفعت عصاها لأعلى ، وعندما توقفت العـربة اتجهت إليه ، مدت يدها وصـافحتـه قـالــت بصـوت عال ، ربما بسـبب الصـــمم الذي أصـابهـا : أنا أم بكيـر .. ابتـــسم عـبـد الناصـر وصـافحـهـا من جديد ،ولمس رأسـهـا برفـــق ، عادت تقـول : نفـسـي في تربـــة يا ريـس .. اندهـش المحيطـون بالموكـب وتبـادلوا الابتـسامـات ، وأم بكيـر عـادت تقـول : تلـمني أنا وجـوزي وابنـي ، تربة جـوزي اتهــدت في الحـرب ، وعـاوزة كفـن حريـر أبيـض ، ويكتـبـوا على التربة أساميـنا يا ريـس .

ربما كانت هذه آخر كلمات سمعها الناس من أم بكير ، حيث عادت أمام بيتها ، تأوى إلى عشتها في الليل ، وفي النهار ترعى كتاكيتها ، تطوّح عصاها بيأس في مواجهة الحدآن التي تتربص فوق أسطح البيوت القديمة ، وربما مر يومان قبل أن ينتبه الناس أن أم بكير لم تخرج من عشتها ، وأن الكتاكيت ظلت تقاوم الجوع بصأي عالٍ يسمعه الجميع .

تعقيب :

بعد عشرين عاماً ماتت الخالة فاطمة في دمياط ، والورثة باعوا البيت لتاجر أخشاب ، وأثناء رفع الأنقاض عثر العمال على حجرة أم بكير ، أخرجوا اللحاف المهترىء البالي ووابور الجاز ، وأواني نحاسية قليلة ، وصرّة كبيرة من القماش ، عندما فتحوها وجدوا بها ملابس عسكرية بدت غريبة لهم ، وحذاءين كبيرين وحافظة بها أوراق مكتوبة بالانجليزية ، وصورة لطفل أشقر وامرأة ذات وجه نحيف ، وسلسلة بها ثلاثة مفاتيح وساعة ، يقف عقرباها على السابعة وستة وعشرين دقيقة ، ونتيجة الساعة تشير إلى اليوم الثاني عشر من شهر نوفمبر .

المعدية

١ - طعم الملح

٢ - ليلة الذبح

٣ - الواقفون على الشاطىء

طعم الملح

باستثناء صوت حوافر الحصان على الأسفلت المبلل ، وطرقعات السوط في الهواء كان ثمة صمت يلفنا ونحن نقطع الطريق من سوق الحميدي إلى المعدية ، كانت أختي الصغرى تغالب نعاساً فتميل برأسها على كتف أمي قليلاً ، فيما كانت أمي مشغولة طوال الوقت بتغطية رأس الرضيع الغارق في النوم وتقبيل أطرافه ومتابعة توجيهاتها لنا بقفل عراوي البالطو حتى الرقبة . أتابع الذين يمشون بجوار الحوائط أو يعبرون بسرعة من رصيف إلى رصيف فلا أرى غير سيقانهم ، وكان عليّ أن أنحني أكثر لأرى وجوههم من تحت مظلة الحنطور . أستطيع رؤية مشاهد حي العرب ببيوته الخشبية التي أكلت النار معظمها ، العمائر المتناثرة بين البيوت الخشبية مشطورة نصفين .. نصف تساوى بالأرض والنصف الثاني مازال واقفاً تظهر منه ما في أحشاء الشقق من أدوات كهربائية ، وأوان ، وأطراف سجاجيد ، وأسرّة ، وكراسي وستائر مازالت في مكانها معلقة ، وبقايا غسيل منشور ، الشوارع شبه مهجورة ، ومع كل هبة هواء ، أشم رائحة رماد البيوت الخشبية المحروقة مخلوطاً بتراب الأنقاض ، ألاحظ تقلصات وجه أمي وهي ترسل عينيها الحزينتين التائهتين تستطلعان حروق الحي الحزين ، ثم تعود لصغيرها في حجرها تهدهده فيما هو يتململ في نومه .

البرد شديد ، أدس كفيّ في دفء إبطيّ ، سعال العجوز يرهق صدره ، لكنه لا يتنازل عن إكمال سيجارته ، يرتفع السوط في الهواء ورحيماً ينزل

على ظهر الحصان ، أتابع الطريق ، النوافذ مطلية بالأزرق الغامق ، بعضنا مغطى بورق التجليد الأزرق ، وثمة أسر تتناثر بين الأنقاض تحيط نفسها بسواتر البطاطين العسكرية القديمة ، ويتبادلون في صمت نظرات منكسرة وهموماً عميقة ، وعند أول شارع قسم الميناء ونحن نقترب من رصيف السقالة لاحت من بعيد حركة الناس المضطربة حول رصيف المعدية ، كان العجوز يهمز حصانة ليُخفّف من اندفاعه ويستدير نصف استدارة ، يتبادل مع أمي بضع كلمات وهي تسأله إن كان بإمكانه أن يدلها على أي بقالة تجد فيها سكراً أو زيتاً .

كنت ألمح عينيه الضيقتين تبدوان بصعوبة تحت اليانكي ذي الحافة العريضة ، ويكاد يغطي نصف الوجه المدبوغ ، ويلقي عليه ظلالاً تزيد من سمرته التي بدت كحروق الشمس ، وكنت أستطيع رؤية ياقة معطفه الكاكي المتسخة ، وأسمع مداعباته لأخي الصغير الذي كان يجلس بجواره ممسكاً بسرج الحصان في فرح طفولي . عندما بدأ المطر من جديد في زخات تزداد شيئاً فشيئاً أسرع المارة إلى البواكي يحتمون بها، وبينما طفل صغير في يد أبيه يرفع وجهه للسماء ويفتح فمه مستعذباً تلقى حبات المطر الكبيرة، كان بعض المارة يجتهدون في فرد الجرائد فوق رءوسهم لتقيهم البلل .

- شد حيلك يا عم أحمد ، الدنيا حتنطر جامد وحتغرقنا .

قال الحوذي لأخي وهو يميل عليه ويبتسم فتبدو أسنانه الفضية تضوي في ضوء الغروب الخافت .

كانت الشمس قد غابت تماماً عندما بدأت حركة الحنطور تهدأ ، فاستعاد العجوز سرج الحصان من يد الصغير ليأخذ مكانه في نهاية صف الحناطير

الطويل الذي ينتهي بنا ويبدأ عند أول المعدية ، بسرعة انحشر أخي بين أختي وأمي ، وأحسست به يرتجف وهو يمسح مخاطه المختلط بماء المطر .

بجوار طابور الحناطير ثمة طابور طويل من الناس ، كانوا جميعاً مطرقين يلفهم صمت عميق وهم يتقدمون في حركة بطيئة تحت المطر ، في طريقهم للتفتيش يتلاصقون ويحكمون ملابسهم فوق أجسادهم المرتعشة ، وثمة قلق وخوف واضح في نظرات العيون ، وحركات الرءوس التي تمتد لتنظر إلى الأمام رغم محاولات الابتسام المجهدة التي يتبادلونها كلما التقت عين الواحد منهم بالآخر .

في المقدمة كان سبعة من الجنود تلمع أسلحتهم فوق أكتافهم في الضوء الخافت المنعكس من كشافات الجيب الصغيرة التي يسلطونها علي الوجوه والحقائب ، ورطانتهم الانجليزية تجتهد في توصيل المعاني للناس .

كان واحداً منهم غير أنه يلفت الانتباه بطوله الفارع وحركة رأسه الذي يلتفت كثيراً ، ويطل إلى الأمام في قلق واضح وهو يرفع ياقة معطفه يصد لسعات برد قوية . يبدو أنه كان يفكر في الرجوع بعد ما اكتشف الكمين ، غير أن يقينه بأن ارتداده للخلف سيُثير شبهة جعله على ما يبدو يبحث عن حل آخر .

في تلك اللحظة التي كنت أراقبه فيها تلاقت عيوننا ، أحسست بشيء ما يدخلني ويستقر في أعماقي ، لم يكن وحده الذي يتأمل ركاب الحناطير ، كانوا جميعاً يفعلون ذلك ، ربما يحسدونهم ، ربما يستمدون منهم الدفء ، غير أنه كان أكثرهم اقتراباً منا ، بالكاد سمعت صوته وهو يهمس مدخلاً رأسه من تحت مظلة الحنطور .

- والنبي يا خالة خديني معاكوا .

تبادلنا أنا وأمي النظرات ، كان الارتباك والخوف واضحاً في عينيها ، وعندما طال صمتنا عاد يقول في رجاء :

كأننا مع بعض ، الله يخليكي .

كانت نظراته قوية ، هكذا أحسست بها ، تقتحمني ، وتستقر في أعماقي وكنت أرتجف ، وأغوص بجسدي في دفء أمي . وقبل أن تنطق بكلمة كان يجلس في المقعد الصغير قبالتنا ، انتبهت أختي إلى وجوده المفاجىء عندما أفاقت من نعاسها ، وضع أصبعه على شفتيه هامساً : هس .

أمال الحوذي رأسه للوراء ، وقال بصوت خفيض .

- معاك حاجة يا كابتن ؟

بسرعة وهو يميل على أذنه .

- أيوه يا ريس .

قال العجوز وهو يعيد رأسه للأمام ويتابع حركة التفتيش .

- طب خلص بسرعة يا بطل .

أصابع الشاب متوترة ، العجوز يميل على الصغير بجواره ، يداعبه ، يردد ، خبي ديلك يا عصفورة ، أخي يبتسم ، يردد معه ، خبي ديلك ياعصفورة ، عندما لاحظ الشاب إحساس الرعب الذي داهمنا قال : متخافوش ..

قالها ورمقني ، ظلت عيناه في عينيّ برهة دون أن ترمشا ، مالت أمي

مرتبكة على حقائب الخضار تفتحها وتُعدها للتفتيش ، انتهز فرصة انشغالها، وبسرعة أخرج من معطفه لفافة من القماش بدت صلبة إلى درجة آلمتني وهو يدسها تحت معطفي ويضغط بها على نهدي .

- اعملي نفسك تعبانة ، عيانة ، أي حاجة .

عاد الحوذي لمتابعة الصفير بصوت تعمده عالياً ، ولابد أن كان ينغز حصانه حيث تململ في وقفته فاهتزت العربة . ساد بيننا صمت ، كنا نتبادل فيه النظرات ، كانت أمي تُحرّك شفتيها بكلام لا نسمعه ، ونحن ننصت لحركة العربة التي تتجه للأمام كلما انتهوا من واحدة .

البحر خلف المعدية مظلم مخيف ، وفيما كانوا يقتربون منا بكشافاتهم الصغيرة كانت أمي تنحني لتُقرّب الحقائب الواحدة تلو الأخرى .

كنت أشعر بساقه تلامس ساقي وارتعاشة خفيفة تسري بيننا ، لحظتها أحسست بالخوف وأنفاسي تتلاحق ، وفيما كانت أختي الصغيرة تنكمش في حضني سمعته يقول ..

- من فضلك عيطي كأن بطنك بتوجعك .. أرجوكي ..

ومع الخوف وهو الشعور الوحيد الذي سيطر عليَّ أحسست دمعة تتحرك في عينيّ ، وجدتها تنسال على خدي دون عناء ، بعدها بدأت أهتز ورحت في نشيج عال وصراخ . مد الجندي رأسه داخل الحنطور ، وجه الكشاف إلى وجهي ، لم أستطع رؤية ملامحه تحت خوذته غير أن أنفاسه حملت إليَّ رائحة التبغ وهو يسأل أمي بعربية مكسرة . ماله ؟ بأيط ليه ؟ نقلت أمي نظراتها بيننا ، لم تعرف ماذا تقول ، اهتم الشاب بي في محاولة ظاهرية لتهدئتي بينما عيناه تهربان لي امتناناً وتشجعاني على المزيد من

البكاء .. مال الحوذي برأسه ناحية الجندي ، رفع قبعته قليلاً حتى بانت عيناه الغائرتان في الضوء المنعكس داخل العربة ، قال بخبث :

- هو سبتال يا خواجة ، عيان .. إل ...

بدا الجندي كأنه فهم الحوذي .. غير أن يده امتدت لحقيبة الخضار وأفرغتها تحت قدميّ أمي ، وجاس فيها ، مصوباً إليها ضوء كشافه ، عندئذ عاد برأسه إلى الوراء وقال وهو يشير بيده إلى مدخل المعدية ..

- يلا .. جو

غمز العجوز حصانه ، وارتفع صوته الخشن يغني وهو يتمايل (بتغني لمين يا حمام) . كان يمكننا جميعاً أن نتنفس الآن ، وكنت أحاول لملمة دموعي التي مازالت تنهمر ، فيما ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي أختي وهي تقول ..

- خلاص عدينا بطلي عياط بقه .

كانت المعدية قد وصلت إلى مرساها في بورفؤاد ، اجتزنا السقالة ، تجاوزنا المرسى إلى شارع المختلط ، فجأة أمسك الشاب بيد أمي ورفعها إلى فمه ، سحبتها بسرعة ، ربتت على كتفه ، رمقته ، أمكنني أن أرى ابتسامة خافتة على شفتيه ونظرة امتنان كان يرسلها إليّ وهو يمد يده ليسترد لفافته ، لحظتها فقط تلامست أيدينا ، أحسست برغبة في أن أترك يدي قليلاً بين يديه لكنه سحبها بهدوء وقفز بسرعة ، وقبل أن ينحني في شارع جانبي من شوارع مساكن الهيئة ألقى نظرة أخيرة علينا ولوّح بيده ، بعدها أغلقت عيني على آخر صورة له ودموع ساخنة تنسال على خدي وتلامس شفتي بطعم الملح .

ليلة الذبح

الآن تستطيع أمي أن تجلس جلستها المعتادة ، على شلتة بجوار الكنبة التي يتمدّد عليها أبي ، ويملؤها بطوله الفارع ، كانت أصابعه تعبث بمؤشر الراديو الصغير الذي يلصقه بأذنه في محاولات دائبة لاصطياد أخبار جديدة من إذاعة لندن ، وملامح هدوء نسبي ترتسم على وجه أمي وهي تتابع وش كنكة القهوة التي بدأت فورانها بهسيس رقيق فوق نار زرقاء واهنة من السبرتاية الصغيرة ، رائحة القهوة تملأ البيت وتشيع فيه ألفة معتادة في أول الليل ، بعد يوم طويل من القلق ، وأصوات الانفجارات المتتابعة التي بدأت مع بشاير الفجر الأول .

أنا أيضاً يمكنني أن أبدأ في حل واجب الحساب المتأخر، هكذا قال أبي: سوف تنتهي الحرب غداً ونعود للمدارس ، أبري القلم الرصاص وأنفخ نشارته من فوق صفحة الكشكول ، تطيربعيداً فتقول أمي دون أن ترفع عينيها عن الكنكة : حاسبي القهوة يا بت ، ثم تداري بكفها عليها فيما يتحرك أخي الصغير ناحية أبي ، عارضاً رسوماته عليه ، ومُلحاً في المشاركة عندئذ يصرخ أبي : اسكت دلوقت يا مصطفى .. ينظر بقلق ناحية الطرقة ويسأل : ليلى فين ؟ ترد أمي وهي تصب القهوة .. في أوضتها ، من مكاني كنت أسمع صوت اصطكاك الفنجان بالطبق ، وأرى ارتجافة يده وهو يتناوله من أمي ، وسائل بُني قليل ينسكب من حافة الفنجان الذهبية ويسيل على صورة روميو وجوليت ، ويستقر في الطبق .

تقول أمي مالك ؟ الضرب خلص .

يأخذ نفساً عميقاً ويقول وعيناه ساهمتان : ده اللي مخوفني ، يعلو صوت الصغير .. الطيارات ناموا .

ضحكت أمي حتى مال رأسها قليلاً إلى الوراء ، ابتسم أبي ، ومسح بكفه على رأس الصغير ، قالت بحروف متقطعة من بين الضحكات : يا عبيط ، الطيارات مش بتنام ، السواقين همه اللي بيناموا .

اتسعت ابتسامة أبي وهو يرتشف القهوة ، عادت أمي تُعد فنجانها وعند أول الطرقه كانت ليلى تجرجر حقيبتها المدرسية بجفنين مغمضين ، وملل واضح ، وتوجه شعاع بطارية صغيرة في كل مكان بالصالة وكأنها تنوي مسح الظلام الذي استقر في بيتنا منذ قامت الحرب .

كل شيء بدا مستقراً وهادئاً ، اخترق الصمت الذي ساد قليلاً صوت مشروخ ، كان يصرخ بكلمات سريعة ومرتبكة فيأتي إلينا عبر النافذة غير واضح رغم رنة الفزع التي شابته وارتباك الكلمات ، استطاعت أمي أن تُميّز صوت عم علي الفرّان ، ترك أبي فنجان قهوته وقفز إلى النافذة ، فتحها بقوة فاصطدمت ضلفتاها بالحائط ، وبسرعة دخلت نسمة هواء باردة مُحملة برائحة أزهار عريشة الياسمين النائمة على السور وتميل بفروع متشابكة على بيت الجيران .

بالكاد لمحنا وجهه الأسود في الظلمة الخارجية وهو يتحرك بحذاء الباب ويشير ناحية السماء ، ثمة كشافات قوية توجه شعاعها في الأفق ، تنبثق من الناحية الشرقية وتمشط السماء بحركة لا تهدأ فتضيء المظلات التي تملأ سماء الملاحة ، وتتتابع كطيور أسطورية ، صرخت أمي .. إيه يا أحمد ؟ صمت قليلاً ، ثم همس في وجوم :

بارشوتات !! خلاص . لازم نمشي .

كان القصف قد بدأ منذ ثلاثة أيام ، وقتها كان يعيش حسن يتسلق جذع التوتة العتيقة من حديقتهم ، يعبر مع فروعها إلى حديقتنا . وينتهي عند ذلك الفرع الملامس لشرفة حجرة البنات كما تسميها أمي .

كم مرة شكته لأم حسن ، وكانت أم حسن تضحك ، تضيق عينيها السوداوين ، تقول : يا اختي دول عيال ، فترسم أمي ابتسامة قلقة وتمر بنظراتها سريعاً على صدري ، فتطرف عيناىّ رغماً عني .

يزحف حسن ببطء محتضناً الفرع الصغير ، ويمد أصابعه بحذر ناحية فرس النبي الذي استكان في نهاية الفرع ، وكنت أكتم أنفاسي ربما خوفاً عليه من السقوط ، أو خوفاً من أن يفزع فرس النبي ويطير بجناحيه الشفافين ، في تلك اللحظة دوي الانفجار الأول ، كان عميقاً وقوياً بحيث ارتجت كل بيوت الهيئة الخشبية ، واصطك زجاج الشرفة خلفي بعنف ، طار فرس النبي ، وفي حين ندت عني صرخة احتضن حسن الفرع بقوة ثم نظر ناحية السماء بفزع عندئذ تتابعت الانفجارات فيما تعالت قأقآت الدجاج في الحديقة ، وتحركت في كل اتجاه ، وجرت جماعات الأرانب إلى جحورها ، وأطلت برؤوس قلقة ، تحرك آذانها الطويلة ، وتنصت بحذر .

لم تكن هناك مهمة أصعب من ذلك أن نجمع حاجاتنا الضرورية على ضوء الشموع أو بطاريات الجيب الصغيرة ، وعلى عجل كانت أمي تدسها في الحقائب ، إذ علينا أن نغادر بورفؤاد بسرعة ، كان أبو حسن قد أكد لأبي أن طراطيش أخبار وصلته تقول إن المظليين يتجمعون في الملاحة ،

وإن المعدية ربما تتوقف عن العمل في أي لحظة ، هكذا كان علينا جميعاً أن ننهي مهمتنا بسرعة فيما ظل مصطفى يصفق بيديه الصغيرتين كلما أضاءت السماء بنور مفاجىء يعقبه طلقات المدافع الأرضية في اتجاه سرب المظلات .

أبي الآن أكثرنا هدوءاً ، ربما لأنه تخلّص أخيراً من قلقه الذي ظل يثقل عليه طيلة الأيام الثلاثة ، أخيراً حسم الأمر وقال : لازم نمشي .

كانت أسر كثيرة قد جمعت حاجاتها ،وبدأت بالرحيل منذ اليوم الأول، وعى مدار الأيام الثلاثة كانت سيارات النقل الكبيرة تتكدس بالأثاث وتمر ليل نهار ، يمكننا أن نراها من هنا ، وهى في طريقها إلى المعدية .

في البداية رفض أبي اقتراح أمي بتجهيز الحقائب للرحيل في أي وقت . قال : كل حاجة زي ماهيه . وتحاشي بعينين قلقتين نظرات أمي وصمتها المحزون . لابد أنه كان يأمل انتهاء الأمر سريعاً برغم تحذيرات رجال الدفاع المدني الذين يجوبون الشوارع ليل نهار ، ويأمرون الناس بطلاء نوافذهم بالأزرق وبناء سواتر من شكائر الرمل أمام أبواب البيوت ، وعدم مغادرة المنازل بعد الثالثة . في مساء اليوم الأول من القصف سمعت أحدهم ينصح أبي بالرحيل ، نزل من فوق دراجته واقترب كثيراً من البوابة حيث يقف أبي وحيداً في الظلام ، همس لكن صوته العريض الأجش مكنني من أن أسمعه وهو يقول ..

- الحكاية كبيرة يا عم أحمد ، على الأقل العيال وأمهم ، هز أبي رأسه وقال : حنروح فين يا عربي ؟ بيوتنا وحالنا ومالنا هنا .

المشكلة التي واجهتنا هي أن نقرر ما هو الضروري ، وغير الضروري ، ربما أدرك أبي صعوبة الأمر أمام رغبات أمي التي لم تكن مستعدة أن تترك

اي شيء حتى فستان زفافها الذي رهنته طوال العمر باسمي . هل سيسمح أبي لي أن آخذ صندوق أفراس النبي ؟ مجرد حشرات ملوّنة باخضرار شفاف ، مسالمة ورقيقة ، فقط هي أهم مقتنياتي في ذلك الوقت . ليلى كانت سعيدة على نحو ما ، همست في أذني :

- تعالي نرمي الكتب في السندرة ..

لم تنتظر ردي جذبت كرسياً ، وقفت عليه وأخذت تلقي بالكتاب خلف الآخر ، تماماً كما كنا نفعل بعد أن نعود من آخر أيام الامتحان ، فلا شيء يكون أكثر أهمية في يوم كهذا سوى أن نتخلص إلى الأبد من كتب دراستنا ، كنا لا ندري أننا نتخلص من أجمل أيام العمر . لابد أن نغادر بورفؤاد الليلة ، وفي الصباح سنغادر بورسعيد أيضاً .

الآن يا أمي يمكنك فتح خزائنك كلها ، الصيني والفضيات التي مازالت حتى اليوم لامعة ، صورة أمك في ملابس الحج تلوّح من بعيد على ظهر باخرة ربما لا وجود لها الآن ، قطع الصابون المعطر التي تحتفظين بها في خزائن الملابس إلى جوار حبات النفتلين ، أقمشة الحرير السوري التي اشتريتها من أم عزيزة ووضعتها في حقيبة شوارنا أنا وليلى .

فتحت كل الخزائن ، كل الحقائب ، وقفت تنظر إليها ، ما هو الضروري وغير الضروري ؟ مازال السؤال ..!!

هكذا انهمرت دموعك يا أمي حين أدركت فجأة أن الضروري الآن فقط هو القليل القليل من كل مدخرات العمر . دموع أمي لا تكف ونحن نركن حاجاتنا أمام باب البيت في انتظار السيارة .

كانت قذائف المدفعية الأرضية أكثر جنوناً ، حيث بدأت الطائرات تلقي مشاعل تتوهج بعيداً في الأفق ناحية الملاحات ثم تتلاشى قبل أن تصل إلى الأرض ، على ضوئها كانت رءوس الأرانب وآذانها الوردية تهتز متوترة بالفزع .

في الصيف ، وفي ليالي اكتمال القمر بدراً ، كان يعمر الحديقة أمن دافيء حيث يجلس أبي قبالة الباب يدخن نرجيليته في كرسيه الخاص الوثير فنسمع كركرتها ، ويحمل النسيم رائحة التبغ إلينا ونحن نتحلّق حول أمي بالقرب من نافذة المطبخ ، حيث يسهل أن نناولها أدوات الشاي والقهوة التي تعدها لأبي ، أو سندوتشات تعدها لنا ، نمسك حزم البرسيم المندي ونقربها من جحور الأرانب في زوايا الحديقة ، تخرج جماعات فضية تتقافز بصغارها ، وتسرح بيننا بحثاً عن سيقان البرسيم الخضراء .

وقفت أمي طويلاً تسند رأسها لباب الحديقة الخشبي وتنظر للرءوس التي تطل من الجحور ، أستطيع رؤية دموع تلتمع في عينيها ، تنساب ، تمسحها بكمها ، تتنهد بوجع ، تقول ، هاتي السكينة الكبيرة يا هند ، أتحرك ناحية الدرج في طريقي إلى المطبخ وأفكر في هول المذبحة التي ستكون ، لأول مرة أرى يد أمي ترتعش وهي تسمي وتنزل بشفرة السكين على موضع الذبح كأنها تعاني ألماً ، تركت السكين جانباً ورفعت يديها ، شبكتهما فوق رأسها بينما انخرطت في بكاء مسموع .

كان لابد أن تنهي مهمتها ، شدت خرطوم الحديقة فتحت الحنفية وأغرقت رأسها بالماء ، امتلأ الطشت عن آخره بالأرانب والطيور المذبوحة ،

كـانت العيـون مفـتوحـة ، والدماء تغـطي أجسـادها وتنسرب على الفـراء والريش ، بدا الطشت مروعـاً كمنظر لحياة تهـمد فجأة ، كـأنه لم تكن يوماً تملأ الحديقة بحركاتها الدائبة وروائحها القوية . فقط بقيت الأم ، الأرنبة التي أطلقنا عليها أم عزيزة .

لا نذكر من سـماها هكذا ، لكنها بقـيت دائماً أم عزيزة ، ربما لتشـابه ما في البدانة وثقل الحـركة ، والأثداء المتدليـة دائماً ، والصغـار الذين يحيطون بها بعيونهم المغلقة وملامحهم التي لم تتشكل بعد ، قالت أمي :حرام خليها لأولادها ، هي ونصيبها .

لم تنس أن تفتح الحنفيـة ليتسرب من الخرطوم سـرسوب ماء يصب في المسقـاة لتشـرب الأرنبة أم عـزيزة وصغارهـا ، وقبل أن تغلق باب الحـديقة نادت على ليلى لتحضر من النملية كل خـزين العيش الناشف ، وضعته في زاوية مع كل ما تبـقى من حزم البـرسيم ، واستـدارت خارجة من الحـديقة وعيونها مازالت تدمع .

الآن كل شيء مُعـد للرحـيل ، الصـناديق والحـقـائب ، أدوات المطبخ ، فرش قليل ، بطاطين صوفية ومعـاطف ، نرصها على عجل في السيارة التي كان أبي يقف فـوقها ، فـيما نناوله كل مـا نقدر على حـمله . لا أحد يمكنه الآن أن يتردد ، حـتى مصطفـى الصغيـر ، وأم عزيزة التي وقـفت على باب جحرها تنظر بدهشة وفزع .

في اللحظة التي ركبنا فـيها السـيارة ، وبدأ محركـها في الدوران ، كنت أنظر إلى ناحية البيت ، حـيث كان حسن جالساً على السور القرمـيد الممتد بجوار شجرة المانجو ، يُحدّق فيما لا أدري ، ثمة صمت ثقيل يتخلله صوت

محرك السيارة التي بدأت تتحرك فعلاً عندما صرخت أمي : نسيت الغسيل. أطلّت من نافذة السيارة ، ورفعت عـينيها إلى البلكونة ، حيث بدت أطراف الملابس من وراء أوراق شـجرة المـانجو ، نظر أبي إليـهـا بنظرة اسـتفـهـام ، هدأت قليلاً ، عادت تقول . لسه مبلول . ابتلع أبي ريقه بصعوبة ثم نظر في امتداد الشارع حيث الظلام وخلاء مجهول .

الواقفون على الشاطئ

أزير الطائرات لم ينقطع منذ الصباح ، ربما يخفت قليلاً حيث تحلق بعيداً في اتجاه البحر وتلمع أجسادها المعدنية في الأفق كالسهام ، عندئذ تسقط حمولتها في مدخل البوغاز فتصيب القلوب بالهلع ويزداد صراخ أفراد الدفاع المدني في ميكرفوناتهم وهي تطالب الناس بالاحتماء في الملاجيء ومداخل البيوت وتنصحهم بالاقتصاد في استهلاك الماء .

وما أن يخفت القصف قليلاً حتى يتحرك الناس في جماعات صغيرة يخرجون من المحال المغلقة وأبواب البنايات ، كثير منهم يحمل أمتعته ، ويمد خطوات مذعورة في اتجاه البحيرة . عندما انطلقت صفارة الأمان ازدحمت الشوارع فجأة ، كان الصبية يصيحون بفرح هيستيري : أمان ، أمان ، والرجال الأكثر حكمة يمشون بحذر تحت الشرفات ، ويشخصون بعيونهم نحو السماء ، ربما ظن أنهم جميعاً يمضون في اتجاه البحيرة .

فكر في اختصار الطريق من ناحية الكبائن ، يعرف أن النار مازالت تمسك بها ، هو رأى ذلك بنفسه ليلة أمس ، وساهم مع الآخرين في حمل جرادل الماء من البحر .

ثمة أخشاب متفحمة تنتشر بطول الشاطىء ، وبقايا نيران تبص من تحت طبقة الكربون الرمادي المتشققة ، ودخان بروائح الطلاء المحترق ، وثمة زوجة يسحبها من يدها ، تجرجر قدميها بصعوبة على الرمال ، وتئن ، تتوقف قليلاً لتسند ظهرها ، ثم تمضي في صمت ، والكبائن التي أفلتت من القصف بدت بلا حياة .

كان يُحدّق فيها ذاهلاً ، عنـدما تعلقت عيناه بخزان الماء الذي يميل فوق سطح الكابينة ، ويتـقـاطـر سرسـوب الماء على الجـدار ثم يتشـربه الرمل ، هكذا مد يده يتلقفه ، ومدت هي شفتـيها لتلعق الماء القليل المتجمع في كفه الخشن ، وعندما ارتوت قليلاً قال :

- لو كنتي تعبانة .. نرجع المستشفى ..

قـالت بوهن : لا ، ثم بدأت بالسيـر ، أما هو فـقـد تلكأ قليـلاً لمّا رأى خطواتها تترنح ، همس : تقدري تمشي لغاية لنشات البحيرة ؟

نظرت إليـه بعينين مـحـمرتين ووجـه شاحب ، ضـغط على يدها بقـوة ومضيـا في اتجاه الشارع من جديد فـيما كان ظلهـما يمتد طويلاً أمامـهما ، وشمس تميل قليلاً نحـو الغروب ، وصمت يطول بينهمـا حتى يقطعه دوي مباغت لطائرة تمرق فوق أسطح البيوت ، كـانت منخفضة بحيث تمكن من رؤية كل تفاصيلها ، وشاهد آلاف الأوراق الصغيرة التي تطير منها ، وتحلق في الفضاء ، ثم تتهاوى على أسطح البيوت وتتعلّق بأعالي الشجر ، بعضها يطير في اتجاههما ويستقر بهدوء على أسفلت الشارع ، التقط واحدة ثم قرأ بصـعوبة الكلمـات المطبوعـة بلون أسـود داكن تُحذّر من المقـاومة وتدعـو للاستسلام ألقى بها على طول زراعه وهمس :

لازم نرجع المنصورة الليلة .

بورسعيد مدينة تحترق . هكذا بدت لهـما وهما يجتازان شارع عبادي ، عربات الإطفـاء تعجـز بخراطيـمها المتـهالكة أمـام النـار التي تضطـرم في البنايـات القديمـة ، سيـارات الإسعـاف تتحـرك بصعوبـة بين الأنقــاض ، لا تكف عن إطلاق رنينهـا المُقبِضْ ، رجال ينبـشـون الأنقاض بمعـاولهم ،

ويتنادون بصيحات فزعة ، كلما بانت لهم ساق لرجل أو رأس لطفل ، كان الجميع يتحركون بذهول ويطلقون صيحات هيستيرية . أخيراً تمكنا من اجتياز شارع عبادي ، كان يتقدمها ببضع خطوات ، ثم يتوقف في انتظارها ، يمد يده إليها ، يتعجلها ، يلين بصوته عندما يرى خطواتها المثقلة وانتفاخ بطنها ، يقول : شدي حيلك ، قربنا .

الرجالة الثلاثة الذين يتكلمون بلكنة صعيدية ، ويحملون أغراضهم على أكتافهم أشاروا ناحية مبنى المحافظة ، ثمة دخان كثيف يتصاعد ويُغطي مساحة الأفق في اتجاه شارع طرح البحر ، هكذا فكرا في الالتفاف من ناحية شارع محمد علي .

رغم أن الوقت لم يكن مناسباً لإمعان الذكرى غير أن صورة المقهى تقفزت إلى ذهنه ، مباريات الطاولة التي تمتد حتى ما بعد منتصف الليل وثأر لا ينتهي بينه وبين حسني كشك ، ها هو الشارع مهجور من المارة والمقهى مغلق ، وعلى الناحية المقابلة جثة لعجوز وسط بركة دم مُتجلّط .

أمسك بها بقوة وحاول أن يمر بها مُتجاهلاً المشهد الدموي لكنها بدأت ترتعش ، وعندما يسمع نشيجها المكتوم يضغط على يدها أكثر ، غير أنه أحس بها تهتز وتكاد تسقط ، ولولا الحقيبة التي في يده لحملها ، فقط أحاطها بذراعه وضمها إليه بقوة فأراحت رأسها على كتفه فيما انهمرت دموعها الدافئة لتُبلّل عنقه .

في ذلك الوقت ، ثمة لنش واحد فقط كان ينقل الناس بالتناوب عبر البحيرة ، وكان على الجميع أن يتدافعوا في كل مرة يأتي فيها اللنش ، ويساوموا الرجل الأسود صاحب اللنش الذي بدا شديد الإنهاك والضجر ،

يصـرخ في الناس بصـوت خـشن ... الستـات الأول يا أفندية .. السـتـات والعيال بس .

رجال كثيرون أطاعوا ، وآخـرون لا يبالون ، يدفعون أولادهم ويندسون وسطهم ، بعضهم يسقط ، ويدوس عليه الآخرون ، احتواها بين ذراعيه شق بها الأجساد الملتحمة ، شيخ مُعمّم نحيل يستسلم للدفعات حتى وجد نفسه في منتـصف اللنش ، أمسك أحـدهم بيـده ، أجلسه مكانه ، بكاء الأطفـال المذعورين يتعالى ، نسوة يتشاجرن لأسباب مُبهمة ، الرجل الأسود صاحب اللنش يمسك بصندوق كـبير ويلـقي به على المرساة ثم يصـرخ في صاحب الصندوق الذي لم ينطق بكلمة .. البني آدمين بس .

تطوع أحد الواقـفين فقال .. علـشان الحمـولة يا حاج ، رجال يتـبادلون الوداع مع نسـائهم وأطفالهم ، هـؤلاء سيعودون للبقاء في بورسـعيد ، فكر هو كثيراً أن يـفعل مثلهم ، ولمّا صارحها قـالت باستكانة : براحتك ، وحين نظر في عينيـها قال : مش حسيـبك ماتخافيش ، ماليـش حاجة هنا ، هكذا قال لنفسه : ماذا لي هنا غير حجرة عفنة وكثير من الخوف والغربة ؟

فكر في تلك اللحظة التي ينـظر فيهـا إلى وجه مـولوده الأول ، وأخوته يلتفون حوله : مبروك ماجالك يا محـمد ، يبتسم ، ويستقبل برضى زغاريد الجيران ، وبنـات عمته سيـدة اللاتي سوف يجدنها فـرصة للرقص والمرح ، هذا دأبهن دائماً .

أخيـراً وجد لها مكاناً ، كان الشـيخ المُعمّم قد هم بالوقـوف لها لمّا رأى بطنها المتفخ وتحاملها بين تدافعات الناس ، الشابة التي تجلس بجواره قامت بسرعة ، قـالت : خليك يا مولانا ، تعالي يا أختي . قـال الشيخ : اللّه يبارك

فيك يا بنتي ، ثم عاد مستغرقاً في تمتماته بعينين كابيتين ، عاد الرجل الأسود يصرخ من جديد : قلنا الحريم بس يا بهايم .

تلفّت حوله حانقاً مستفزاً ، ثمة رجال قليلون يتلكأون في الخروج من اللنش ، بدافع الحرج ، تزحزح قليلاً في اتجاههم ، غير أنها أمسكت بجلبابه ، ونظرت إليه بتوسل ، تردّد قليلاً ثم قال : حاحصلك على طول ، ما تخافيش ، كانت المرأة البدينة التي تجلس بجوارها وتحتضن أطفالها الثلاثة تتابع حديثهم بنظرات عطوف ، هزّت رأسها وقالت : سيبك منه ، مراتك على آخرها ياعين أمها ، دموع تملأ عينيه ، اجتهد أن يداريها ، تلفّت حوله بارتباك واضح .. قال : طب أعمل إيه يا خالة ؟

الأسود صاحب اللنش يتعجل الخارجين : الأخ أبو جلابية . قال لنفسه : مافيش فايدة ، رأت في عينيه نظرة انهزام . مدّت يدها وأخذت منه الحقيبة الصغيرة ، لم تكن أكثر من كيس من القماش الأزرق ، فتحتها وتشاغلت بتقليب محتوياتها ، كانت تتفادى النظر إليه وهو ينسل بين النسوة الجالسات في قاع اللنش ، ويقفز إلى المقدمة ، يتلكأ مع الآخرين أمام الرجل الأسود ، يميل عليه ويهمس بشيء فيما هي تتأكد من وجود الأقمطة ، والكوافيل ، ولفائف القماش الأبيض ، وقطعة من الصوف لبطانية قديمة ، لمّت الحقيبة في حضنها وسرحت عيناها بعيداً تستطلع أفقاً مضبباً وبحيرة لم تعد ساكنة .

كانت صيحات تتعالى بالغضب ، تتعجل الرجل الأسود الذي بدا ساخطاً وضجراً وهو يقف أمام الماكينة ، يتأمل الراكبين بنظرات حادة كأنه يحصيهم ، صاح أحد الواقفين على المرساة : خلصنا بقه يا ريس ، الدنيا حتضلّم .

أدار الرجل المحرك ، انبعث دخان كثيف وانتشرت رائحة السولار المحترق ، فتعالت أصوات الأطفال المذعورين ، كانت تحتضن الحقيبة الزرقاء ، وتضمها بقوة إلى صدرها ، وتحاول النظر من فرجة بين الأجساد الملتحمة على مقدمة اللنش ، لمحته يتحرّك ويشير بيده ، قال شيئاً لم تسمعه ، كان الجميع يتكلمون ، أو يلقون وصايا أخيرة ، بعضهم انتحى إلى جانب من الشاطىء ، وقفوا يتبادلون الأحاديث بأصوات عالية ، ويتبادلون السجائر ، وينظرون إلى السماء ، أو إلى الشاطىء الآخر الذي بدا هادئاً بلا حركة ، وخيط أخير من الضوء ينعكس على قمم الأشجار وأسطح البيوت المواجهة ، يستدير اللنش ببطء ، صوت المحرك أكثر حدة ، فك أحدهم الحبل من الوتد ، وألقاه في اتجاه مقدمة اللنش ، لم يتنبه إليه الرجل الأسود الذي بدا منهكاً في معالجة الماكينة وسط هالة من الدخان الداكن ، هكذا بدا اللنش يتهادى ثم يزيد من سرعته تدريجياً ، غير أنه بدا مثقلاً بالأجساد المحشورة ، ويميل قليلاً على جانبه الأيسر ، والواقفون على المرساة ينظرون بقلق ، ويرقبون الحركة المثقلة للنش كلما أوغل بعيداً في اتجاه الشاطىء الآخر .

الواقفون على الشاطىء رأوا كل شيء ، وسمعوا صيحات النساء والأطفال تعلو على أزير الطائرات التي بدأت التحليق مع الغروب ، ورأوا اللنش يميل على جانبه حتى ينقلب ، ورأوا الأجساد الملتحمة تتفكّك في الماء والأذرع ترتفع في الهواء ثم تغوص .

الواقفون على الشاطىء خلعوا ملابسهم ، وسبح بعضهم فيما ظل الآخرون على الشاطىء ، ظلوا طوال الليل يمشون بطول الشاطىء ،

يُحدّقون في المياة المظلمة ، ويتبـادلون الكلمات الحزينة والدموع ، ويشعلون سجائرهم غير آبهين بهجمات الطيران التي اشتد جنونها .

الواقفون على الشاطىء تمكنوا في الفجر من انتشال ثلاث جثث ، وسلة كبيرة من الخوص ، ودمية بلاستيكية ، وحقيبة من القماش الأزرق السميك وقطعتين صغيرتين من قماش أبيض نظيف وقماط مولود .

المستشفى الأميرى

البوابـــة

كانوا ثلاثة ، مدجحين بشداتهم العسكرية الكاملة ، وربما لبرودة الجو يضعون أيديهم في جيوب سراويلهم الكاكية ، فيما يتلفع أحدهم بكوفية تداري جانباً من وجهه .

التصق إلى جوار الكشك الخشبي المجاور للبوابة الكبيرة ، فيما ظل الآخران يتبادلان حديثاً هامساً ، وبخار شفيف يتصاعد من بين شفتيهما ويُحدّقان في عمق فناء المستشفى ، حيث المباني الخشبية الصغيرة تتضح معالمها بخفة في ضوء الفجر الرمادي ، وغلالة من دخان ، ورائحة العدس المطهو تشيع في الجو ، وتتركز بكثافة في اتجاه مبنى المطبخ .

تستيقظ حواس الملتصق بالكشك ، هكذا أمكنه رؤية القادمين عبر الأسياخ الحديدية للبوابة ، كتلة معتمة تتحرك في اتجاه المستشفى ، وتتضح معالمها شيئاً فشيئاً .

الآن يمكنه أن يرى .. سائق الدراجة الأسود ، وجلبابه الذي ينحسر عن فخذين ضامرين بلون الأبنوس ، هكذا نهض من جلسته مسرعاً في اتجاه البوابة ونادى زميليه .

صوت الجنزير يصطك بالصاج السميك ، فالبوابة نفسها تصلصل بقوة، وتجرح الصمت الذي ساد منذ توقف القصف .

يستيقظ النائم في الكشك ، يطل بوجهه من الباب الضيق ، يخرج

متدثراً بالمعطف الأبيض ويتأبط دفتراً كبيراً ، والجنديان الآخران يسرعان في حمل الجريح الذي سقط بمجرد أن توقفت الدراجة ، وفيما كان ذو الكوفية يسحب التروللي من وراء الكشك كان ذو المعطف يفك أزرار السترة الغارقة في الدماء ، مازالت حارة ولزجة رغم برودة الجو ، حدّق في الرجل الأسود الذي التصق بالتروللي ، قال ذو الكوفية لزميليه : تالت واحد يجيبه الراجل ده .

بدا سائق الدراجة منشغلاً في تأمل بقع الدم التي انفرشت على جلبابه ، هكذا لم ينتبه لسؤال ذي المعطف الأبيض الذي فتح دفتر الأحوال وتأهب ليكتب شيئاً .

- هه ؟

- بقولك اسمه ايه ؟

- ما اعرفش .

- ما بيتكلمش ؟

- لا .

- جبته منين ؟

- م الجبانة .

- فدائي ؟

- ما اعرفش .

صاح ذو المعطف وهو يطوي الدفتر ويمده ناحية ذي الكوفية ، أنت مش عارف حاجة خالص .

ارتبك سائق الدراجـة وتراجع للوراء خطوة ، تنهّد في صمت فتـصاعد بخار كثيف ، طال صمته ، فعاد ذو المعطف يقول .

- انت زعلت ؟

- ....

- انت اسمك ايه ؟

- علي

- طب يا عم علي .. زق معايا الترولّلي .

كان ذو الكوفية يركن الدراجة بجوار الكشك الخشبي حيث كان يجلس منذ قليل ، والآخران يتعاونان في إغلاق الـبوابة الحديدية التي عاد حديدها يصلصل من جديد .

كـانوا ثلاثة بـشـداتهم العـسكريـة الكاملة ، يُحـدّقـون في عــمق فناء المستـشفى ، ويتبعـون بعيونهم الرجلين ، يدفـعان الترولّلي ، يميل إحـدهما على الآخر ويتكلم بصوت غير واضح ، والآخر يعـرج بساق ضامرة ناحية اليمين ، يمتد ظلهمـا على مساحة رمال صفراء ، تبدو داكنة في أشـعة خافتة تجاهد في الطلوع وراء المبانى الواطئة .

عنبـــر ٣

من يملك جرأة قهرها ؟

هذه النحيفة الشاحبة بعينيها المروعتين والرضيع الذي يميل على صدرها يكاد يسقط ، وهي تثبت كفها الدقيق على ظهره ، وتحاول لملمة جلبابها الطويل الذي يتلوى تحت قدميها ، ويكاد يُسقطها وهي تصعد الدرج الرخامي المتآكل

فالجنود الثلاثة الذين يحرسون البوابة الخارجية ، انهاروا واحداً وراء الآخر أمام عينين على هذا القدر من الجمال والخوف ، قالوا لها إن اسمه غير مُسجّل بدفتر الأحوال ، ويعني هذا : إما يكون فاقد الوعي ، أو يكون ؟

أشار أحدهم ناحية عنبر ٣ وقال : بس بسرعة ، القومندان بيمر

ورئيسة الحكيمات سمعت صوتها المتوسل أمام مسعد فخرجت من دورة المياة قبل أن تُزرّر معطفها فاستطاع جندي الحراسة الواقف بالباب أن يرى جزءاً من صدرها السمين .

ردّد مسعد الاسم لنفسه وقال إنه لا ينسى مرضاه ، وإن الاسم ده ماجاش هنا

«المجهولون كانوا ثلاثة : واحد مات ودفن في الصباح ، والآخران مدنيان»

تنزلق طرحتها على الأرض فيميل جندى الحراسة ليلتقطها ، يقدمها لها وينظر في عينيها ولا يتكلم .

يتململ الرضيع ويبدأ البكاء حين تعدل طرحتها فوق رأسها فتقول رئيسة الحكيمات : العيل حيقع منك .

تتقدم خطوة في اتجاه العنبر فتقابلها رائحة نتنة لا تفلح المطهرات في إخفائها ، تدور بعينيها بين صفيّ الأسرة وترتبك خطواتها كلما أوغلت في عمق العنبر .

كانوا فوق أسرتهم لا يبالون ، غارقين في أناتهم وآلامهم ، والمتعافون قليلاً يفترشون الأرض ، ويُحدّقون فيها بدهشة وصمت .

يمد مسعد رأسه داخل العنبر ويقول بصوت عال: حد هنا اسمه ابراهيم؟ حد من الشرقية ؟

تهم بعض الرءوس وتنظر في اتجاه الباب ولا ترد ، فيما هي تتقدم بخطوات بطيئة وتدور بعينيها على الأسرة والأرض .

كل الوجوه متشابهة ، سمراء داكنة وأربطة الشاش البيضاء ملوثة بالدم والصديد ، رءوس حليقة وذقون نبت شعرها وأنين مكتوم تماماً كما يتألم الرجال ، وعيون مهزومة ، فقط مهزومة بلا أي تعبير آخر ، وبكاء الرضيع يزيد فتنقله إلى الكتف الآخر ولا يسكت .

أحدهم يسحب البطانية على وجهه فترفعها بحذر وتنظر ، الضمادات تغطي عينيه فلم يرها لكنه ابتسم وقال : أنا اسمى رياض .

عيناها الآن قلقتان تفيضان باليأس ، الرضيع يبكي ويشد الطرحة من فوق صدرها ، فتعيدها وتربت على ظهره بكفها وأشعة الشمس تسقط

على وجهه ، وأطراف الأسرة مستطيلة صغيرة بحجم النوافذ ، وذباب يهيج فجأة حين تدوس بقدميها كومة من الملابس بدماء داكنة ومتجلطة ، والذي على السرير الأخير يترقب قدومها ، يسألها بوهن : هو في سلاح ايه ..

تهز رأسها بيأس فيقول :

اسألي في عنبر واحد بتاع الحروق . تصرخ رئيسة الحكيمات : يانسكتي العيل يا تمشي من هنا . تنقله إلى الكتف الآخر وتربت عليه ، تعدل طرحتها لكنه يجذبها من جديد ، ويبكي ، ونظرات رئيسة الحكيمات تلين شيئاً فشيئاً وهي تتأمل بقعة مستديرة على صدرها ، تنفرش بسائل شفاف ولزج ، تقول بهدوء : رضعي ابنك ، صدرك حن .

يقول مسعد من بين شفتيه الممسكتين بالسيجارة : اسألي في الثلاجة ، ويهرب بعينيه ناحية جندي الحراسة الذي رفع خوذته وراح يهرش رأسه ، ويتبع رئيسة الحكيمات بنظراته .

هذه المرة تركت الطرحة تنزلق وتتعلق على كتفها ، والصغير يمد يده ويبكي ، تنظر إلى مسعد فتزيد مساحة الخوف في عينيها ، وتتحول دموعها الصامتة إلى نشيج ، تمسك بيدها رئيسة الحكيمات ، تربت على كتفها : إهدئي ، رضعي ابنك واحنا حندوّر عليه .

على البلاط تجلس بجوار باب العنبر ، تمسح دموعها بطرحتها السوداء ، تتربع وتخرج ثديها الصغير ينفلت من فتحة الصدر الضيقة بقوة فيندفع الحليب فجأة وينزلق على وجه الصغير فيغلق عينيه ، ويبحث بشفتيه الصغيرتين عن الحلمة ، يتلقفها بفمه وينهمك في مصها .

كـان جندي الحراسـة يتـأمل ثديها ، والقـبـضة الصـغـيرة الممـسكة به ، ودمـوعهـا التي تسـيل على رقـبـتهـا وصـدرها وتذوب في خليط اللعـاب والحليب بين وجـه الرضيع والثدي المنضغـط ، ولمّا انتبهت لمّت ساقيها تحت جلبابهـا ، تداري الخلخـال الفضي والنعـال البالـي ، شـدت الطرحة علـى صـدرها ، فدارت الشـدي ورأس الـصغـر الذي أغـمض عـينيـه وسـكت ، عندئـذ استدار جندي الحراسة ، وراح يُحدّق في عمـق العنبـر .

السرير السابع

أخيراً ... توقـفت الأنات التي ظلت تتردّد بانتظام طوال الليل ، سكتت تمامـاً وسـاد الظلام والصمـت الكثيف، وأصـغى جندى الحـراسـة الواقف بالباب للصمت الذى سـاد يستطيع أن يحدد موقعـه تماماً رغم الظلام ، لقد ظل يســمع الأنات بلا انقطـاع حـتى بعــد أن توقـفـت حـركـة الأطبـاء والممـرضين ، هكذا يستطيع أن يحدد مـوقعـه ، السـرير السابع من جـهـة اليمين ، وهو يتحـسس خطواته بالبيادة الثقيلة فـكر ، لابد أنهم تركوه ينفرد بلحظات الألم الأخيرة .

توقف أمام السرير وتردد قبل أن يمد يده ويهـزه برفق ، أشعل عود ثقاب وقربه من الوجه ، تراجع بسرعة عند رؤيـة الوجه المحترق والعظام المتآكلة ، بدا منتفخـاً بلا ملامح ، غير طبقات الجلـد المكشوط ، ودوائر الدم المتجلطة والقـيح ، والأسنان السـوداء التي بدت من وراء الشفـاه المتـآكلة ، زعق من مكانه : يا عم مسعـد . ثم مضى في اتجاه الباب بخطوات مسرعـة ولم ينتبه لدبشك البندقـيـة وهو يصطدم بحـديد الأسرة البـيضـاء . عندئذ ، تعـالت همهمات في العنبر ، تعلو شيئاً فشيئاً وأصوات مبهمة .

لم تكن حجرة التمريض سوى ممر جـانبي ضيق بجوار دورة المياة ،، ثمة أكـداس من البطاطين السـوداء والملاءات المتـسخـة ، وصناديق كـرتونيـة ، بعـضـهـا فـارغ مُلقـى بغـيـر انتظام ، فـقط منضــدة من الصـاج الأبيض ،

بزجاجات المحاليل مرصوصة بانتظام بجوار الضمادات والقطن وأوعية من لنيكل اللامع ، وعم مسعد فوق كومة البطاطين ، فاغراً فاه ، ويصدر شخيراً متقطعاً ، غير أنه استيقظ بمجرد أن ناداه ، مسح اللعاب الذي انسال على جانب فمه وقال . فيه ايه يا دفعة ؟ ..

- العسكري اللي في السرير السابع .

- ماله .

- باينه تعيش انت .

- ايش عرفك ؟

- تعال شوف ..

دس مسعد يده في جيب المعطف الأبيض ، أخرج كشاف الجيب ، وجهه في عمق العنبر فارتسمت دوائر ضوئية شاحبة ، وتكسرت على الأسرة والحوائط ، كان يركز الضوء على السرير السابع كلما اقترب منه ، فيما انطلقت أشعة شاحبة على وجوه بعض المرضى ، كانوا يقومون برءوسهم قليلاً ، وينظرون في صمت وجزع ناحية السرير السابع ، والذي على السرير المجاور أكثرهم جزعاً ، بانت ملامحه شديدة الشحوب في مراقبة التمورجي ، والجندي الذي يقف خلفه بخطوة ، ويرقب باهتمام وقلق الأيدي المدربة لعم مسعد ، وهو يتحسس قدميْ الميت العاريتين ، إذ كان من الصعب أن يفعل هذا مع يدين بهما كل هذه الجروح حتى تهرأ جلدهما .

وجه ضوء الكشـاف ناحية العينين المتورمـتين وفتحهمـا بصعوبة ، ليس ثمة استجابة للضوء ، فسحب البطانية على وجهه فيما ترك القدمين عاريتين وعاد لأول العنبر .

نظر جندي الحراسة ناحية السرير المجاور ، تردّد لحظة وقال ..

- اسمه ايه ؟

والذي كـان على السرير أغـمض عـينيه ، ابتلـع ريقه بصـعوبة وقـال : معرفش .

- من أنهي بلد ؟

قال المريض بصوت واهن .. من ساعة ماجه ماتكلمش .

تنهّد جندي الحراسة بعمق وقال : ارتاح .

في اللحظة الـتي ظهـر فيـهـا التـمـورجي يدفع الـترولـلي قـام البـعض برءوسـهم، وتعالت الهـمـهـمات المبـهمـة من جديـد ، وربمـا بدأ أحـدهم يبكـي بصوت مـكتوم ، غيـر أن صوت عجـلات الترولـلي كان حـاداً فوق البـلاط .

نزع التـمـورجي قطعـة من شـريط لاصق ، بللهـا بلسـانه وكـتب بقلم الكوبيا شيئاً ، ثم لصقها على قدم الميت اليمنى ، وضع مؤخرة الكشاف بين أسنانه ، استدار ناحية الرأس وقال : ايدك معايا يا دفعة .

انحني جندي الحراسة ليمسك بالقدمين ، كانتا باردتين ومتصلبتين ، غير أنه كان منشغـلاً بقراءة الكلمة المكتوبة على الشـريط اللاصق ، وعلى ضوء الكشاف الخافت نطقها لنفسه بصعوبة : مجهول .

ديسمبر الدافىء

كان يمكن سماع قطرات المطر تتساقط في الخارج ، وهي تركن رأسها وتنصت بقلق ، الآن ، هي تفكر كيف يمكنها أن تُميّز طرقاته الثلاث من بين ذلك النقر المتتابع فوق إفريز النافذة .

في كل مرة كان يأتي ، وبأصابع جمدها البرد ينقر على خشب النافذة تشعر بتلك اللهفة ، ويبدأ قلبها في الوجيب ، تمتد يدها ناحية النافذة تفتحها بحذر ، تتلمّس الخارج الذي يسبح في الشبورة الكثيفة والظلمة الداكنة ، بصعوبة أمكنها رؤية شبحه يتحرك بخفة بين الأشجار التي زادت من كثافة الدكنة الخارجية .

بحذر يقترب ، فتبدو ملامحه شيئاً فشيئاً ، عندئذ تكون هي قد رفعت المقعد إلى حافة النافذة وبدأت في إنزاله ، وحيث يصبح تحت النافذة تماماً ، يتلفّت حوله مراقباً الناصيتين القريبتين كلما استشعر صوت خطوات . تهمس وعينها على الطريق :

- بسرعة

بخفة يعتلي المقعد ويشب ليمسك بحافة النافذة ، تمد يدها تساعده ، تشعر ببرودة يده ، ودفء أنفاسه اللاهثة :

- خلي بالك ..

- ماتخافيش

بمجرد أن تطأ قدماه أرض الغرفة يشم رائحة المحاليل المطهرة ، تدور عيناه في المكان بسرعة لتمسح مساحات الأبيض على الجدران والأسرة والمناضد المعدنية ، تغلق الشباك ، تنظر إليه ، في كل مرة ترى ذلك الحنين وتلك اللهفة ، في كل مرة يرتمي بين ذراعيها وتسمع أنفاسه فيما يشبه البكاء .

عندما يأتي يهل معه الأمان ويتوقف نهر الخوف الذي يشق صدرها بالانشغال ، وهم الانتظار ، وكوابيس التوجس ، وعندما يمضي تصبح وحيدة إلا من خاطر يهمس .. لقد اخترت لقلبك أن يخاطر ويذوب مع ذهابه وإيابه فهل تصمدين ؟

كان المطر يزداد في الخارج ، وهي تنظر لساعتها بقلق ، فكرت في المسافة التي يمكن أن يقطعها في الطريق من الجبانة إلى شارع المستشفى ، كمائن الدورية تجوب الشوارع الخالية ، وتقطع الطريق على مارة قليلين جازفوا بالخروج من بيوتهم ربما بحثاً عن رغيف خبز أو دواء لا يبالون لطلقات الرصاص التي تتردد بين البنايات وعند المنحنيات .

هذه المرة بصعوبة أمكنها أن تميز الطرقات الثلاث وبنفس اللهفة أخذته بين ذراعيها لتسمع همهمة ذلك النشيج الذي لا ينضب .

قالت :

- اتأخرت قوي ، شغلتني عليك .
- غصب عني الضرب مابيسكتش .
- فيه أخبار ؟
- ولاد الكلب ضربوا وابور المية .

- وانتم عاملين ايه ؟

- بخير ... لكن الشوارع ملغّمة ، كماين في كل حتة ، حيتجننوا بعد ما خطفنا مورهاوس .

رفعت كفها إلى فمها تخنق شهقة ، مد يده تحت معطفه الصوفي الداكن ، أخرج لفافة عريضة ، تناولتها في صمت ، أحست برطوبة ماء المطر تبلل حوافها فردتها في درج ثم أحكمت إغلاقه .

- خلي بالك وانت بتوزعيها .

- ربنا يستر .

أشارت ناحية السرير ، تحرك إليه ، غيّرت ضمادة تعلو جرحاً يطاوع الالتئام فوق كوعه ، جلس بجوار الشمعة التي وضعتها على حافة (الترولل) في الزاوية ، كان الضوء الخافت يشكل ظلالاً باهتة فوق وجهه وهو يرقب خطواتها الحذرة ، تفتح باباً جانبياً ، تطل برأسها الدقيق ، وتنصت قليلاً لحركة (السستر) المناوبة ورطانتها لزميلتها وأنات المرض المكتومة تجرح الصمت الليلي ، وصوت انفجارات بعيدة تعلن عن اشتباك حاد ، تغلق الباب بهدوء ، وقبل أن تتجه ناحية الدولاب الزجاجي ، تلقي نظرة عليه ، وتداري دمعة تحركت في عينيها والتمعت في ضوء الشمعة الذابل .

- محتاجين شاش كتير وبنسلين .

هزّت رأسها في صمت وهي تفتح الدولاب ، وفيما كانت يدها تسحب لفافات الشاش الطبي ، سمعت خطواته تقترب منها ، ارتعشت أهدابها وهي تتوقع لمسات أصابعه الباردة وتتحسّس كتفيها في وجل .

قال : بتوحشيني ، بتوحشيني قوي .

استدارت إليه ، كان ظله الطويل ساقطاً على وجهها فلم يلحظ الدمعة التي تحدرت وهي تضع رأسها على كتفه .

كان يحضن اللفافة الكبيرة بين ذراعيه ، وهو يشخص ناحية النافذة وينصت لأصوات المجنزرات التي تأتي من بعيد ، فيما هي تفتح النافذة بهدوء وتلقي نظرة على الظلام الذي يمتد وينكسر مع أصوات القذائف التي تضرب بورسعيد فتضيء السماء بوهج ينطفيء سريعاً .

- خلي بالك من نفسك ..

- ماتخافيش .. أنا زي القطط .

- اقفل صدرك الدنيا برد .

بحبك .

واربت الشيش وراءه ، ودست عينيها بين الضلفتين ترقبه وهو يغيب بين صف طويل من الأشجار فيبدو من وراء دمعتها كشبح راقص يذوب شيئاً فشيئاً في الظلام .

وفي تلك اللحظة التي امتدت فيها يدها لتغلق النافذة كان صوت دفعات رصاص تشرخ قلب الصمت ، وصرخة مكتومة تتلاشى في البعيد .

الفهرس

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رفرفة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فندلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنته	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدي صَح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.علي فهمي خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الحلم	ليلى الشربيني
النغم	ليلى الشربيني
الخرابة 2000	محمد الشرقاوي
كوميديا الإنسجلم	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
إلحاح	محمد عبد السلام العمري
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمري
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محيي الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القلبري
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخوري

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولي
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولي
قصائد حب من العراق	البياتي وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطي
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
تماماً إلى جوار جثة يونسكو	رشيد الغمري
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبري السيد
دنيـــا تناديـــا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر. النجوم. العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافي
حواديت لفندي	عصام خميس
سيرة الماء	د. علاء عبد الهادي
راتب الألفة	علوان مهدي الجيلاني
إضاءة في خيمة الليل	علي فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النعم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوي
إذهب قبل أن أبكي	د. لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدي رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسيني
ليالي العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد

مسرح ..

العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د. أحمد صدقي الدجاني
اللعبة الأبدية (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبد الحافظ

دراسات ..

العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د. أحمد إبراهيم الفقيه
نخبات عصر جديد	د. أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د. أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمبة عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعاني في بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشي
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادي
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
البعد الغائب: نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي في السعودية	شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع	شوقي عبد الحميد
رحلة الكلمات	د. علي فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربي	د. علي فهمي خشيم
أعلام من الأدب العالمي	علي عبد الفتاح
هيمنجواي حياته وأعماله الأدبية	*د. غبريال وهبة*
زمن الرواية: صوت اللحظة الصاخبة	مجدي إبراهيم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغني
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديري
الرواية العربية: رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة في الإصـــدارات لا تعبـــر بالضـــرورة عن آراء يتبـناهـا المركـــز



كلانا قد تغير ، شوارعك مزدحمة
كقلبي تماماً ، ومثلي تنجحين في
إزاحة الوجع القديم ، إلى حفرة في
أعماق الروح ، وطمر الجراحات
القديمة أنت الآن أجمل ، أجمل
كثيراً ، لكن روحك معذبة ،
وعيونك مؤرقة ، تبحث عن شيء
ما .. ربما تبحث عن يقين ، تقرأ
لافتات المحال ، تتأمل الوجوه ، ترصد
شرفات المنازل الخرسانية ، ترينها
خاوية من أصص الورد وأشجار
الياسمين القصيرة ، ترينها بلا رجال
يشربون الشاي في ساعات النهار
الأخيرة ، وبلا نساء ينشرن ملابسهن
الملونة ، ويضعن مشابك الغسيل بين
أسنانهن ، ولا ضحكات دافئة
يحملها النسيم الليلي من شرفات
مضيئة .

